د . مأمون فريز جرار

العلاقات الأسرية

رؤية اسلامية





العلاقات الأسرية

(رؤية إسلامية)



الطَّبْعَة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



الأردن ـ عمان ـ العبدلي ـ مركز جوهرة القدس ـ الطابق ٢ مكتب ٦٠٥
هاتف ٤٦٥٧٤٦٨ ـ ٦ ـ ٠٦ فاكس ٤٦٥٧٤٦٩ ـ ٠٦ خلوي ٥٦٥٢٨٠٤ ـ ٧٩ ـ ٠٠٩٦٢
ص.ب: ٩٢٧٥٦٣ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-Mail: AL_AALAM@YAHOO.COM

العَلاقاتُ الأُسريَّـة

(رؤيـة إسـلامـيـة)

د. مـأمـون فـريـز جـرار





مقـدّمـة

الحمد لله الذي خلق الزوجين الذكر والأنثى، وجعل من آياته أن خلق أزواجاً يسكن بعضهم إلى بعض، وجعل بينهم مودة ورحمة. والصلاة والسلام على رسوله الكريم الذي حض على إنشاء الأسرة المسلمة على أسس متينة، ودعا الشباب إلى الزواج، إعفافاً لهم، ولتكون الأسرة محضناً لجيل مؤمن.

ولا يخفى أن العلاقات الأسرية هي علاقات بين بشر يخطئون ويصيبون، ويحسنون ويسيئون، ولذا لا بد أن ينظر الإنسان إلى الأسرة وعلاقاتها نظرة تدبر وتفكر، بناءً وامتداداً، وعوامل نجاح، وعوامل خلل، وما قد تؤول إليه بعض الأسر من نهاية غير سعيدة.

وهذا ما جعلته موضع نظري في هذا الكتاب الذي أضعه بين أيدي القراء، وهم: إما زوج وزوجة ركنا الأسرة، أو ثمرة من ثمراتها أبناء وبنات، أو مقبلون على بناء أسرة جديدة ضمن دورة الحياة وفق سنن الله تبارك وتعالى.

ولقد ضمَّنتُ هذا الكتاب نظرات وآراء هي ثمرة التفكير والتدبر، والخبرة والمشاهدة والسماع، وأملي أن يجد القارئ فيها فائدة تحفزه إلى موقف إيجابي، وتبصره بمواضع الخلل، وتزوده بنظرة الحذر من المزالق التي قد تنشئ أسرة غير سوية، أو تدفعه إلى سلوك غير قويم، أو تؤدي بالأسرة إلى عاقبة لا تحمد. وأشير إلى أنني لم أستخدم الأسلوب البحثي الموثق في التأليف، ولا الفصول المطولة التي قد تثقل على القارئ العادي، وهو وجهتي في الكتابة، ذلك لأن مقصدي هو أداء رسالة إيجابية في حياة الأسرة، أرجو أن تجد من يتلقاها ويحسن التعامل معها.

وأسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب ويكتب لي أجره ولناشره مثل أجري.

والله ولي التوفيق

د. مأمون فريز جرار

عمان/ ١٤٢٢هـ

٢٠٠٢م

الفصل الأول

في الطريق إلى عش الزوجيّة

* ضرورة التأهيل الأسري.
* لماذا الزواج؟
* التكافؤ الأسري.
* الخطبة ومشكلاتها.
* تكاليف الزواج.

ضرورة التأهيل الأسري

إن من غرائب الأمور أن الناس لا ينظرون إلى الحياة الأسرية أو تكوين الأسرة النظرة التي تستحقها!

فَقلَّ من يرى أن تكوين الأسرة بحاجة إلى تأهيل أو تدريب.

ولم نسمع بعدُ بدورات تعقد للمقبلين على الزواج، أو للأزواج المنتظرين للمولود الأول أو للآباء الذين بلغ أولادهم سنَّ المراهقة!

ولعل منشأ هذا الخلل الذي أشير إليه هو أن النظرة المعاصرة للأسرة هي امتداد للنظرة الموروثة من الأجيال السابقة من غير مراعاة للظروف المتغيرة التي طرأت في حياتنا.

فقد تغيّر نظام الأسرة في أكثر المجتمعات العربية من الأسرة الممتدة التي تضم الجد والأب والحفيد، إلى الأسرة المستقلة التي ينفرد فيها الزوج وزوجه عن باقي الأسرة.

ولئن كان في هذا النظام الجديد توفير للخصوصية للزوجين، فإنه أفقد الأسرة الصغيرة ما كانت تأخذه من

موروث العادات والتقاليد الإيجابية، أي أفقدها عنصر التواصل بين أجيال الأسرة الكبيرة.

ومما يضاف إلى هذا أن أكثر الفتيات في زماننا لا يتلقين التدريب الأسري أو الثقافة الأسرية لانشغالهن بالدراسة منذ وقت مبكر إلى بلوغهن مرحلة الزواج.

وإنَّ فقدان التأهيل الأسري للزوج والزوجة يؤدي إلى قيام أُسر غير سوية يسودها التوتر والقلق وعدم التكافؤ، وتُنتج أفراداً لا يتمتعون بالصحة النفسية.

وقد يؤدي ذلك إلى انهيار الأسرة ولو بعد سنين طويلة.

لقد أثارني خبر قرأته في إحدى الصحف يتضمن إحصاءً بعدد الزيجات في الأردن خلال سنة ١٩٩٤ حيث بلغ أربعين ألفاً، وفي مقابل ذلك كانت حالات الطلاق سبعة آلاف! تلك هي الحالات المسجلة وكم من حالة طلاق تتم دون تسجيل.

إنني أرى ضرورة الالتفات إلى التأهيل الأسري، وذلك واجب على علماء الدين، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع. وكل خبير أو قادر على الإسهام في بناء الأسر المتينة.

وإن من المجالات المفتوحة للتأهيل الأسري: عقد دورات منهجية مدروسة للأزواج الجدد أو المقبلين على الزواج، وتأليف الكتب التي تنير لهم الطريق، ونشر المقالات والتحقيقات التي تنمي الوعي الأسري لديهم.

وإنني إذ أرجو أن تجد هذه الدعوة صدى لدى ذوي الاختصاص من أهل العلم والجمعيات، أو بعض الجهات العلمية.. فإنني أسهم بجهد متواضع في إضاءة بعض جوانب هذا الموضوع آملاً أن يجد القبول، وأن يثير الحوار وأن تظهر أهميته.

إن الخطوة الأولى في سبيل تحقيق الثقافة الأسرية أن يحس طرفا الأسرة بأهميتها، وأن يحسا بالحاجة إليها، وأن ما لديهما من معلومات ومؤهلات بحاجة إلى التعزيز والتنمية من خلال النظرة العلمية، والخبرة العملية.

وإنني أرى أن كل مرحلة من مراحل الحياة الزوجية بحاجة إلى إعداد خاص، ويمكن أن نقسمها إلى المراحل التالية:

١- مرحلة الإقبال على الزواج.

٢- مرحلة ما قبل الإنجاب.

٣- مرحلة مراهقة الأولاد.

٤- مرحلة تأهيل الأبناء للتعامل السليم مع الوالدين في مرحلة الكبر.

لماذا الزواج؟

إن من المهم للمقبل على الزواج أن يسأل نفسه سؤالاً صريحاً.. لماذا الزواج؟

هذا السؤال ضروري لأن الزواج مشروع عمر.. ومشروع باهظ التكاليف في أغلب الأحيان.. وأظن بل أجزم أنه يستحق التفكير الطويل قبل الإقدام عليه.. ليقوم على أسس سليمة.. ويضمن حسن الاستمرار.

قد يكون الدافع الأساسي للحياة الزوجية هو مواجهة ضغط الحاجة الجسدية في مرحلة الشباب المتوقدة.. وبخاصة في زمن كثرت فيه المغريات والمثيرات.

وقد يؤدي هذا الدافع إلى تصور غير واقعي للحياة الزوجية.

كما قد يؤدي إلى اتخاذ قرار غير سليم في البحث عن زوجة لا تتوافر فيها الصفات العامة للزوجة الصالحة.. بل يقتصر على البحث عن زوجة ذات جمال!

لقد كانت النصوص الشرعية واضحة في كشف دوافع الرجال للزواج، وذلك في قول الرسول ﷺ في الحديث

المتفق عليه: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك».

وهذا الذي حدده الحديث الشريف من دوافع الزواج لا يزال باقياً في الناس، فكأن الحديث يضع يده على قانون من قوانين الحياة الاجتماعية.

فالذي يعيش تحت ضغط الحاجة الجسدية وحدها.. أو تكون هي الدافع الأقوى لديه يؤثر الجمال لظنه أنه يشبع تلك الحاجة.

والذي يعيش في فقر مالي وفقر نفسي يظن أن المرأة الغنية هي التي توفر له حياة كريمة! والذي يحس بضعف مركزه الاجتماعي وحاجته إلى السند الذي يثبت قدميه على الأرض يبحث عن زوجة من أسرة معروفة.. تشكل له الغطاء الاجتماعي للانطلاق إلى أهدافه وطموحه.

وتبقى النظرة المتوازنة.. النظرة الواعية إلى الحياة الزوجية.. النظرة إلى الأسرة من خلال الدين.. الذي يحفظ للإنسان حاجاته كافة..

فمن قدَّم الدين في اختيار الزوجة.. جمع الله عز وجل له ما طمح إليه غيره من جزئيات قد يشقى بها وتخيّب ظنه.. لأن تلك الجزئيات من جمال ومال وحسب أمور

نسبية قد توجد حيناً وقد تزول.. أما الدين الحق.. فإنه باق.. بل يفترض أن يكون في ازدياد.. ليشكل الحماية الدائمة للأسرة.

ولو نظر كل واحد منا حوله.. ونظر في أحوال الأسر القريبة منه، وتبين دوافع الرجال في الزواج لوجد مصداق ما ذكرته آنفاً.

ولئن لم يكن لدى كثير من الشباب المقبلين على الزواج دقة الانتباه أو بعد النظر لاستكناه المستقبل، فإن من حقهم على الوالدين والأقارب والأصدقاء أن يبصروهم بما ينبغي أن يضعوه من المعايير في اختيار الزوجة.

التكافؤ الأسري

إن من الضروري أن يمتلك طرفا الزواج تصوراً واضحاً عن تكوين الأسرة، ذلك أن هيجان الشباب وما يرافق التفكير في الزواج (والتقاليد) التي تسبقه، والأحلام التي تواكب ذلك، لا تدع فرصة للطرفين لتصور واقعي للزواج!

بعض الشباب شعارهم: المهم أن نتزوج!

وبعضهم ذو مزاج شاعري حالم، يظن الحياة كلها شهر عسل! أو أجواء من الود والانسجام والرفرفة في عالم العصافير والأزهار!

وقليل هم الشباب الواقعيون الذين يدركون حقيقة الزواج.

ومن المشكلات التي قد تهدد مستقبل الأسرة افتقاد التكافؤ بين طرفي الأسرة أو بين أسرتيهما.

لا بد من إحساس الزوج أن الزوجة بكل ما فيها من صفات ظاهرة وباطنة هي: ربة البيت التي تصلح لحياته، أي له فرداً ولأولاده من بعد أُمّاً. وتصلح أن تكون لأمّه كنَّةً! بمعنى أن تكون له عوناً في كل شأن من شؤونه، وكل مرحلة من مراحل حياته.

وهذا هو التكافؤ الذي أعنيه. والأمر نفسه يقال بشأن الزوجة في نظرتها إلى الزوج، ليكون التكافؤ قائماً بين الطرفين وفي أعين الطرفين.

بعض النساء جميلات وهن أشبه باللعب أو بعارضات الأزياء!

قد تفتن الناظر إليها!

وقد تلفت نظر أُم العريس قبل أن تلفت نظره!

ولكن ماذا وراء هذا الجمال الفاتن؟

أهناك عقل راجح؟

أهناك عمق في النظر إلى الحياة أبعد من مطالب اللباس الفاخر والزينة الظاهرة، وقضاء متع الحس؟!

إنْ يكن ذلك فهو خير إلى خير، وإلاّ فهو: الشر المستطير، والهم الكامن!

بعض الشباب يندفع ويتخلى عن بعض معايير أسرته وقد يظن في مرحلة ما أنه إن وجد الفتاة الصالحة في (ذاتها) بعيداً عن أسرتها ومكافأتها لأسرته. فالأمر يهون!

وهو هنا ينظر إلى الزواج نظرة قريبة لأن الزواج في الحقيقة ارتباط بين أسرتين كبيرتين قبل أن يكون اقتراناً بين

رجل وامرأة! وإن لم يقع الرضى بين هاتين الأسرتين، والإحساس بالتكافؤ والتقارب، كان ذلك عاملاً من عوامل هدم الأسرة، لأن الشاب أو الفتاة سيحس أحدهما أو كلاهما بالغربة في أسرة الآخر.

وقد يؤدي ذلك إلى سلوك غير سوي يؤدي إلى قطيعة بين الرجل وأسرة زوجته، ومثله زوجته مع أسرته.

وهنا تذهب السكرة وتأتي الفكرة! ويحس الطرفان بالغلطة التي ارتكباها.

إنها دعوة للشباب إلى الواقعية قبل الإقدام على الزواج، والتفكير في العواقب بعيداً عن النظرة الآنية القصيرة، والسعيد من وُعِظ بغيره ممن سار في الدرب ثم ندم.

الخطبة ومشكلاتها

من مشكلات الزواج المعاصرة التي أظن أنها من مستحدثات هذا الزمان مشكلة الخطبة. وأقول مشكلة لأن الأصل في الخطبة أن تكون مقدمة للزواج، مقدمة سريعة لا طويلة طولاً يجعلها هماً أو مشكلة!

الخطبة هي: حديث بشأن زواج رجل من امرأة، فإذا تمت الموافقة وتم تحديد المهر ووقع القبول والإيجاب فإن الأمر يتعدى الخطبة إلى العقد الشرعي.

ومن العادات السيئة في هذا الزمان أن تطول فترة الخطبة بلا عقد مدة من الزمن، وذلك بدعوى إتاحة المجال للطرفين ليعرف كل منهما الآخر!

والذي أراه أن يكتب العقد إذا وقع القبول والتراضي، وذلك لتكون هذه العلاقة شرعية مرعية ديناً وعرفاً.

ولكن!

ماذا يعني أن يُقْدم إنسان على الخطبة؟

إن ذاك يعني أنه مستعد للزواج وقادر عليه.. ومن هنا فإن المفترض أن تكون فترة الخطبة هي فترة إعداد لبيت الزوجية إن لم يكن قد تم إعداده من قبل.

في هذه الفترة. . يتم إيجاد نوع من الجسور النفسية، ومد خيوط التعايش والتوافق بين الطرفين في ظل العقد الشرعي. والادعاء بأن من الأحسن ـ قبل العقد ـ أن يتم شيء من التفاهم هو وهم من الأوهام!

ذاك لأن كل طرف منهما سيبدي للآخر أحسن ما عنده، بل سيوهمه بما ليس فيه من الصفات ويكوّن كل من الطرفين للآخر صورة بعيدة عن الواقع. . هذا في أكثر الأحيان!

وإذا أخذنا بالتوجيه الشرعي الذي يوجه إلى ضرورة نظر الخاطب إلى المرأة قبل إيقاع العقد، ونظرها إليه، إذا أخذنا بذلك ونظرنا إلى التعليل «فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»، علمنا الحكمة البالغة!

إنها النظرة الأولى التي تولد التعارف والتآلف أو توقع التناكر والاختلاف، وما بعد هذه النظرة يكون استكمالاً لها.

فإذا وقع التآلف. . تكون مسؤولية الطرفين متابعة ذلك بالنظرة الواقعية، والسلوك الحسن، الذي يزيد الحب في القلوب ويُنمّي علاقة احترام بين الطرفين.

وتختلف المدة الزمنية للخطبة تبعاً لحال الخاطبين. . وظروفهما الاجتماعية والمادية، وإن كان من المهم ألا

تطول هذه المدة طولاً يصبح مصدر إزعاج وضيق لأطراف عدة:

أول هذه الأطراف الخطيبان، أي طرفا الأسرة المقبلة.

ومصدر الإزعاج الأول هو أنهما ـ وبعد كتابة العقد ـ يصبحان زوجين مع وقف التنفيذ.

فمن الوجهة الشرعية هما زوجان لهما كل الحقوق الزوجية.

ومن الوجهة الاجتماعية هما «خطيبان» ليس لهما إلا حقوق محدودة.

وتظل عيون الرقابة عليهما في داخل البيت وخارجه.

ومن الأطراف التي تنزعج من طول مدة الخطبة أسرتا «الخاطبين».

فقد يحس أهل الزوجة أول الأمر بفرحة ويظهرون الترحيب بالقادم الجديد.

وقد يستمر هذا الحال أسابيع.. أو أشهراً معدودة..

ولكنهم ـ وذلك من حقهم ـ سيسألون وماذا بعد؟

ألم يحن الأوان لكي يستقر الخطيبان في بيت الزوجية؟

وسيهمس بعض أطراف الأسرة إن لم يكن الخطيب جاهزاً للزواج فلماذا أقدم على طلب ابنة الناس؟

ومن المنزعجين كذلك أهل الخاطب.. وبخاصة إذا كانت الخطبة قد تمت تحت ضغط من ابنهم، ولم تكن ظروفه قد نضجت، وكان استعداده للزواج غير تام.

لقد كان النبي ﷺ حكيماً عندما خاطب الشباب بشأن الزواج فقال: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وإن من مشكلات الخطبة الطويلة أن يُقدم الخاطبان على إقامة علاقة زوجية بينهما قبل المراسم المتعارف عليها.. مما يولد مشكلة تكون لها آثار في نفوس من حولهما.. وبخاصة إذا وقع الحمل.. مما يدعو إلى الاستعجال في إتمام الزواج قبل الاستعداد التام له.

وكما قلت من قبل.. إنه ليس في ذلك حرج شرعي ما دام العقد قد تم، ولكن للمعايير الاجتماعية حسابها في هذا المجال.

إن العجلة في الخطبة قد يكون وراءها الخوف من ضياع الفتاة.. ويرى الشاب أن سعادته لن تكتمل إلا بها، وفي

هذه الحال لا بد من التفكير بطريقة مقبولة شرعاً وعرفاً إلى أن ييسر الله الأمر ويكون الشاب في حالة استطاعة كاملة.

ثم أقول أخيراً.. لو أن الناس تنازلوا عن كثير من التعقيدات المادية والاجتماعية التي تجعل من الزواج مشروعاً باهظ التكاليف لما احتاج الشباب إلى مدة طويلة للتفكير في الإقدام عليه أو إطالة مدة الخطبة.

وذلك الأمر بحاجة إلى حملة توعية يتخلص الناس بها من كثير من العقد النفسية والاجتماعية التي تخلق مشكلات لا يعلم آثارها إلاّ الله عز وجل.

تكاليف الزواج

الزواج آية من آيات الله في حياة الإنسان.. بها يتكاثر النوع الإنساني.. ويجد الرجل والمرأة فيه السكن والمودة والرحمة.. ولكن كثيراً من الناس حولوا مقدماتِ الزواج واحتفالاته إلى مباهاة اجتماعية.. ومناسبات يُنفّس فيها بعض الناس عن عقدة الجاه.. وحب الظهور!

ومن هنا يأتي التنافس في الإسراف في الحفلات!

وقد تسمع من يقول أريدها حفلة ليس لها مثيل! حفلة يتحدث عنها الناس! هذا في حفلات الرجال والنساء على السواء!

ولو قُدِّر لك أن تطلع على «ورقة الحساب» بعد الحفلة لصدمتك! ولقلت: أليس هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه؟ أليست هناك مصارف مشروعة أولى بالإنفاق من المباهاة وحديث الناس؟

لتكن الحفلة.. ولتكن الوليمة.. ولكن.. لا للإسراف.. ولا للرياء!!

وإذا نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى زاوية الزوجين

المقبلين على الحياة الجديدة.. فإننا نجد أنفسنا أمام مشروع عالي الكلفة.. هو تأسيس أسرة! فهناك المهر وتوابعه.. وتأثيث البيت.. وحفل الزواج.

لا بد أن يراود الزوجين شعور بأن هذا الأمر المكلف يستحق كل هذه النفقات، ولا بد أن يجدا في الحياة الجديدة ما يعوض ما أنفق.. حتى لا يقول أحدهما.. أهذا هو الزواج؟ أهذه هي الحياة التي كنا نحلم بها؟!

في حياة الأسرة جانب ظاهر.. هو الجانب المادي الذي يلفت الأنظار.. وهناك الجانب الأهم الجانب النفسي والقلبي الذي يجعل من حياة الأسرة جنة.. أو يحولها إلى نار حامية!

وإذا كان بعض الناس يملكون أن يؤسسوا بيتاً فخماً يأخذ بالعيون والقلوب.. فإن كثيراً منهم لا يملك أن يعمر هذا البيت بالحب والدفء والمودة والرحمة!

وإذا كان بعض الشباب المقبلين على الزواج يحلم بالبيت المادي المثالي وكذلك الفتيات.. فيريد بيتاً كذا مساحته.. وكذا مواصفاته.. فإن من الغفلة لديهم جميعاً ألاّ يحلموا ببيت تعمره نسمات المودة والحب!

وكثيراً ما تكون نفقات الزواج العالية المرهقة سبباً في فقدان الحب من حياة الأسرة. .

إننا ندعو المقبلين على الزواج ومن ينفق عليهم من آباء موسرين أن يتفكروا كثيراً قبل الإقدام على الإسراف الذي يسخط الله عز وجل ولا يسلم من ألسنة الناس!

الفصل الثاني

من أسس النجاح في الحياة الزوجية

* حقوق وواجبات.
* الواقعية؟
* صيانة الأسرار.
* المناسبات الأسرية.
* الشورى.
* الإنجاب.
* البيت أولاً.

حقوق وواجبات

ماذا يريد الزوجان. . كل منهما من الآخر؟

هذا سؤال يجب أن يضعاه أمام أعينهما. . وأن يضعا له الجواب الحقيقي. . إن موافقة الواقع للتوقع. . أساس الاستقرار. وبمقدار التباعد بينهما تكون الخيبة.

إن الرجوع إلى النصوص الشرعية التي ترسم صورة الحياة الزوجية يمثل الأساس المتين لها. . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

إن الزواج هو بحث عن السكن النفسي. . والسكن الجسدي. . ليتمتع الإنسان بالاستقرار، ويلبي حاجاته الطبيعية تلبية مشروعة تستقيم بها حياته ظاهراً وباطناً.

ومن مستلزمات هذه الحياة المودة والرحمة. . وهما مطلوبان من الطرفين.

والسكن والمودة والرحمة تتجسَّد في موقف وسلوك. . وفي نظرة وعمل.

ولا يخفى أن توفير الجانب المادي المناسب الذي يحفظ الكرامة الإنسانية، ويولد في النفس الرضا والاستقرار أمر مهم لا غنى عنه.

ولكن من المهم كذلك أن تتسلح الزوجة بالقناعة وغنى النفس، وبخاصة في زمن تبرجت فيه متع الدنيا وزينتها، فإذا امتلك الإنسان شيئاً مما يحسنُ في عينيه بدت له أشياء أحسن منها.. في مدد لا ينقطع!!

ولتتذكر الزوجة قول النبي ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض ولكن الغنى غنى النفس»، وقوله: «وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس».

وهذا أساس مهم من أسس استقرار الحياة الزوجية ونجاحها، فكثرة المطالب المادية التي تفوق القدرة وتتعدى الحاجة الطبيعية للإنسان تكون مبعث قلق وسبب شقاق.

والحياة الزوجية ليست وسائل مادية فحسب..!

فكم زوجة وفر لها الزوج كل ما تتمناه امرأة.. ولكنها تكون في البيت الكبير حبيسة زنزانة! وتكون الزينة التي تبهر الأنظار في يديها ونحرها.. سلاسل وأغلالاً لأنها تفتقد الكرامة الإنسانية! تفتقد النظرة الحانية، والكلمة الطيبة.

إن من أسس نجاح الحياة الزوجية أن يكرم الرجل زوجته.. وهذا ما بينه قول النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم».

إن حسن الخلق والخير أمران زائدان عن توفير المطالب المادية التي كثيراً ما يتمسك بعض الرجال بأنها هي حق المرأة.. فيقول: ماذا تريد المرأة أكثر من الطعام والكسوة والبيت والعشرة الزوجية؟!

إن النظرة التقليدية إلى المرأة في بعض البيئات باعتبارها إنساناً من الدرجة الثانية نظرة غير شرعية ولا إنسانية.

وفي بعض مجتمعاتنا من الأمثلة المستقبحة في هذا المجال ما ينبغي أن يشغل بال دعاة الإصلاح لأن تلك النظرة هي امتداد للنظرة الجاهلية التي كانت تُسوّد وجه من يبشر بالأنثى.. وتدفع بعض الجهلة إلى وأدها.

وإن من الظلم للحقيقة أن ينسب ذلك السلوك المنحرف وتلك النظرة الجاهلة إلى الإسلام.

إن آثار هذه النظرة لتبدو في سلوك بعض الأزواج مع نسائهم.

وإذا كانت النظرة السوية والسلوك العادل مطلوبين من الزوج، فإن المطلوب من الزوجة الرضا والقناعة بحياتها وزوجها.

ومطلوب منها أن تُقدِّم له من أمور الحياة كل ما يتوقعه بإتقان ينمو مع الأيام.. ليرى منها كل يوم ما يحببها إليه.. ويرى منها السمع والطاعة بالمعروف.

الواقعية

إن من المألوف في مرحلة الشباب الميل إلى الأحلام الوردية، وتصور مستقبل لا تشوبه العقبات، وذلك ما يكون لدى الزوجين في مرحلة الخطبة وبخاصة إذا طالت.

وإذا لم يكن الزوجان على درجة من الوعي والتفكير المنطقي فإن هذه الأحلام قد تكون سبباً في خلق المتاعب في الحياة الزوجية المقبلة.

ذلك لأن قناع الأحلام لا يلبث أن يزول بعد حين قريب من لقائهما في عش الزوجية، وسيقول الزوج: لم أتوقع أن تكوني هكذا!! وستقول له: لقد خدعتني.. فقد رسمت لك صورة أخرى من خلال ما قلت وما تصرفت في فترة الخطبة!!

وإن كثيراً من النهايات غير السعيدة للحياة الزوجية تبدأ في المرحلة الأولى التي درج الناس على تسميتها بشهر العسل.

ولا أدري لماذا يجعل الناس للعسل شهراً واحداً في عمر الزواج!! وكأنه جرعة لا يستغرق استهلاكها أكثر من

شهر!! والنظرة الواقعية، والتفكير المنطقي يمكن أن يمدّا هذا العسل على مراحل الحياة الزوجية كلها.

إذا قامت الحياة الزوجية على تقوى الله.. وتمثل ذلك في نظرة عادلة من كل طرف إلى الآخر، وسلوك سوي يؤدي فيه كل طرف إلى الآخر ما عليه، ويأخذ ماله، ويزن بالقسطاس المستقيم.. فإنها ستكون ثابتة الأساس طويلة العمر!

قلت: إن كثيراً من المشكلات الكبيرة تبدأ في (شهر العسل) حيث يقترب الزوجان من بعضهما.. بلا أقنعة.. وتبدأ مرحلة (التكاليف) وتنتهي مرحلة الأحلام الوردية.. وتبدأ مرحلة الاختيار الحقيقي للطرفين.. لقد كانا من قبل يرسمان المستقبل، ويخططان للحياة.. فها هو المستقبل قد حضر.. وها هو الطريق.. قد وضعا أقدامهما على أوله.. فإن كان طريقاً معبداً.. وكان كما وصفه كل منهما للآخر.. كانت البداية سوية.. وإلا.. التفت إلى رفيقه وقال: إذا كانت هذه هي البداية.. فماذا عن بقية الطريق!!

وكثيراً ما تكون بداية التفكير في الانفصال بين الزوجين في شهر العسل!

ولكنه يظل قراراً مؤجلاً..

وقد يكون التأجيل طمعاً في التغيير.. ولكنه قد يراعي أموراً.. منها:

أولاً: تكاليف الزواج.. فهل من السهل أن يضحي الزوج بكل ما أنفق..

ثانياً: الأهل.. فماذا تقول هي لأهلها؟ أتقول: إنه خدعني بمعسول الكلام؟ وماذا يقول لأهله: لقد خيّبت ظني وتوقعي!!

ومعلوم أنهما إن شكيا فإنهما سيتلقيان جواب: اصبرا.. فما زلتما في بداية الطريق!

ثالثاً: الناس والمجتمع.. فماذا سيقول الناس عن زواج لم تمض عليه إلا أيام أو أسابيع؟

وكثيراً ما يغلف الزوجان هذا الواقع المر.. بابتسامات ومجاملات أمام الناس.. ولو كشف قناع هذه الابتسامات لانكشفت مشكلات عميقة!

إنني أدعو الشباب إلى الواقعية في النظرة إلى الحياة الزوجية..

أدعوهم إلى الواقعية في عرض أنفسهم.. عرض الشخصية من غير أوهام أو أحلام مصطنعة. وليُبقِ كل

منهما بعض ما عنده من الخير مطوياً عن الآخر في مرحلة الخطبة. . ليكشفه شريكه بعد الزواج. .

وليقبلا على الحياة الزوجية وهما يعلمان أنها حياة. . فيها الحلو والمر. والصحة والسقم. . حياة كالفصول الأربعة. . تزهر حيناً وتهب فيها النسمات حيناً آخر.

فإذا اتخذا الأهبة لكل حال لم تأت فجأة. . فتكون آثارها متقبلة، ويستطيعان التعامل معها من غير أن تُحدث شروخاً عميقة في النفوس والحياة.

صيانة الأسرار

للأسرار في الحياة الزوجية معنيان:

الأول: العلاقة بين الرجل والمرأة، وهذه علاقة حظر الإسلام الكشف عنها بل جاء في الحديث النبوي الشريف: «إن مثل الذي يُحدّث بما يكون بينه وبين زوجته كمثل شيطان لقي شيطانة فغشيها والناس ينظرون».

الثاني: وهو المقصود من حديثي ما يكون في داخل أسوار البيت من أنماط العلاقة المختلفة، حلوها ومرّها.. خيرها وشرّها!

إن أول ما ينبغي أن يدركه الزوجان أن الحياة الزوجية شركة بين طرفين تعاقدا على إقامتها، تحقيقاً لمنفعة متبادلة، وتطبيقاً لسنة من سنن الله في الحياة الإنسانية، واقتداءً بالسنة النبوية الشريفة.

هذا التعاقد يقتضي نشوء نوع من الولاء.. الذي لا بد أن ينمو مع الزمن.

ومن علامات نموّه أن يحرص الطرفان على أن تكون الحياة الزوجية على خير صورة ممكنة، وأن يحرصا على أن

تبقى صورتهما لدى الأطراف المختلفة التي لها بهم صلة على أكمل وجه.

إن من الدلالة على عدم إدراك معنى الحياة الزوجية ما نجده من بعض الأزواج رجالاً ونساءً.. من التوجه إلى الأقارب: أماً أو أباً أو أختاً أو أخاً.. وإفشاء أسرار تلك الحياة لهم!

فبعض الأزواج لا يدع صغيرة ولا كبيرة من أمور الحياة الزوجية إلا ويهمس بها في أذن هذا أو ذاك!

والنتيجة هي: أن تختل صورة طرفي الأسرة لدى من لهم بهما صلة!

لا بد أن يحرص الزوج على صورة زوجته أمام أهله.

ولا بد أن تحرص الزوجة على صورة زوجها أمام أهلها.

وذلك لا يكون إلا برعاية كل منهما حق الآخر بأن لا يفشي سره.. ولا يغتابه من وراء ظهره!

قد تتعرض الحياة الزوجية لبعض المشكلات، وقد يجد كل من الزوجين نفسه بحاجة إلى أن يجد جواباً لمعضلة تواجهه..

وهنا يأتي دور الصديق الأمين. . الذي يستشار فيخلص النصيحة والذي يطلع على السر فيحفظه ويحرص على سمعة صاحبة. .

وفرق كبير بين استشارة ناصح أمين. . وتشهير ينطلق به لسان الزوج والزوجة كل في حق الآخر.

إن من المهم أن يدرك الزوجان أن الحياة لا تخلو من منغصات. . وأنّ أياً منهما ليس ملكاً مبرأ من العيوب. . وأن من حق كل منهما على الآخر أن يعينه على إصلاح حاله. .

ومن حق كل منهما أن يتجاوب مع النصيحة. . وأن يعلم كل منهما أن غايته الإصلاح لا تسقّط العيوب. . كما قد يوحي الشيطان بذلك!

وقد يصعب على النفس أن تنكشف بعض عيوبها للطرف الآخر. . ولكن هذا المعيار لا يكون بين الأزواج. . لأن ما بينهما من العلاقة لا يكون بين أي طرفين في شبكة العلاقات الاجتماعية. . وما بينهما من حياة قامت على ميثاق غليظ.

إن من المهم لدى الزوجين أن يعلما أنهما يمثلان شخصية اعتبارية واحدة. . وأنهما طرف واحد لا طرفان. .

فإن فعلا ذلك حفظا لنفسيهما الاحترام من الأطراف الأخرى والمكانة العالية لكل منهما في نفس الآخر.

المناسبات الأسرية

الموضوع الذي يندرج تحت هذا العنوان قد يثير ردود فعل سلبية. . ذلك لأنه قد يدخل في مفهوم بعض أهل العلم في مجال مشابهة الكفار أو تقليدهم، ولكن يمكن أن ينظر إليه بمنظار آخر فيلقى قبولاً لدى آخرين.

الموضوع: هو المناسبات الأسرية التي يمكن أن يُحتفل بها لتكسر الرتابة في حياة الأسرة وتبعث فيها روح التجديد!

والذي يدعو إلى ذلك هو طبيعة الحياة الحديثة، الحياة التي تشغل الناس بعضهم عن بعض وتقيم بينهم حواجز وهم تحت سقف واحد!

إن الأمم تحتفل بيوم استقلالها، كما تحتفل بالمناسبات ذات المكانة الخاصة في تاريخها، وتلك الاحتفالات من العادات لا من العبادات! أي أنها ليست في البدع التي يمكن أن تزاد في الدين، والتي قد يقال فيها: لماذا لم يفعلها النبي عليه وآله الصلاة والسلام، أو الصحابة، أو الصالحون في قرون الخير؟

أقول: ما الذي يمنع أن يحتفل أفراد الأسرة فيما بينهم بذكرى تأسيسها، أي ذكرى الزواج؟ ويكون في ذلك اليوم اجتماع لأفراد الأسرة يشكرون الله عز وجل فيه على نعمة الأسرة؟

وما الذي يمنع أن يحتفل أفراد الأسرة فيما بينهم في ذكرى انضمام كل فرد من أفرادها إليها.. في يوم مولده؟ وذلك الاحتفال غير المصحوب بمنكر هو من باب شكر النعم الذي أنعم الله به على الأسرة بذلك الفرد.

إن هناك من يعترض على مثل هذه الاحتفالات بقوله: إنه لا عيد للمسلمين إلا الفطر والأضحى. وليكن، فلا تسمى هذه المناسبات أعياداً، بل تسمى أياماً: يوم الزواج، وذكرى الميلاد، ويوم الأسرة، أو يوم الأم وغير ذلك..

إن هذه المناسبات ليست مقصودة في ذاتها بل هي وسائل تدفع بها الأسرة الرتابة التي تهيمن عليها. والاعتراض على ذلك بأنه ينبغي أن تكون كل أيام الإنسان شكراً لله على ما آتاه من النعم اعتراض يتجاهل واقع الحياة المعاصرة، هذه الحياة التي تسارعت فيها عجلة الحياة إلي الحد الذي شغلت فيه الناس عن بعضهم، فإذا أخذت بهذا المنظور أظن أن حدة

المعارضة لها ستخف، لأن المودة والرحمة أساس مهم من أسس الحياة الزوجية، وما أعان عليها أرجو ألا يكون فيه بأس.

الشورى

إن ملامح شخصية الفرد تبدأ في التشكُّل في الأسرة. . المحضن الأول من محاضن التربية. ففي الأسرة يدرك المرء طبيعة وجوده، وطبيعة الحياة، فهي عالمه الأول الذي يطل منه على العالم الأوسع.

ومن المهام الرئيسية التي ينبغي أن تسعى الأسرة إلى غرسها في نفوس أفرادها روح الشورى.

وذلك بأن يحسَّ كل فرد من أفرادها أنه جزء من مجموعة يهمه أمرها وأمر كل واحد منها.

وإن من أسوأ ما يمكن أن تغرسه الأسرة في نفس الفرد (روح القطيعة) أو نزعة التبعية المطلقة التي هي نوع من أنواع العبودية النفسية للفرد المطلق صاحب الأمر النافذ والرأي الذي لا يُرد.

وإذا أخذنا مبادئ الإسلام منطلقاً في هذا الأمر وجدنا أن الرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام لا يعامل الأمة (التي هي الأسرة الكبيرة) بروح الاستبداد.

بل كان دأبه: «أشيروا عليَّ أيها الناس».

وذلك استجابة لأمر الله تبارك وتعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد تجلى حال المؤمنين في الصفة التي تحدث عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

والأسرة هي المحضن الأول الذي يتجلى فيه هذا الأمر بأن يكون أمرها شورى بين أفرادها، وأن يسعى رب الأسرة إلى أخذ آراء أفرادها فيما يهمهم.

إن من أمور أفراد الأسرة ما يقرره الفرد بنفسه، وقراره هو حصيلة سنوات من التربية والإعداد.

ومن ذلك موقف الفتاة ممن جاء يخطبها، فليس للأب أن يتعسف ويلزمها بمن لا ترضى.

وكذلك قرار الفرد بشأن تخصصه الدراسي، فليس للأب أو الأم أن يلزمه بدراسة ما لا يميل إليه من فروع العلم في الجامعة.

إن بث روح الشورى في الأسرة هو تطبيق للتكريم الإلهي لبني آدم، وتمهيد لانتشار روح الشورى في المدرسة وفي شؤون الحياة العامة، ليحسَّ كل فرد من أفراد المجتمع

أنه جزء من بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً، مما يولد في النفوس روح الانتماء إلى الأسرة والمدرسة والمؤسسة والمجتمع.

والمنتمي إنسان منتج مخلص لا يفرّط بحقه ولا بحق أسرته ومجتمعه.

الإنجاب

إن من البواعث الأساسية للزواج إنجاب الذرية التي يرجو المسلم أن تكون ذرية صالحة.. يناله أجر تربيتها.

ويناله أجر ما يكون منها من عمل صالح..

ويأتيه منها بعد وفاته أجر متصل.. بدعوة صالحة من ولد صالح. ولذلك لم يكن عجباً أن يأتي التوجيه النبوي الكريم بتزوّج الودود الولود..!

ولكن.. أنّى للمرء أن يعرف أن زوجته ولود.. إن كانت بكراً؟!

إنه من أمر الغيب الذي لا يعلمه إلاّ الله!

وأمر الإنجاب غيب لا يعلم وقته إلا الله عز وجل.. وفيه من العجائب ما يستحق أن يذكر.. ليكون عبرة لمن أراد أن يذكر!

من الناس من يكتب له الولد في وقت مبكر من حياته الزوجية.. فلا يكاد شهر العسل ينقضي حتى تكون الزوجة حاملاً.

ومنهم من تمر الأشهر.. بل ربما تمر السنوات.. والزوجان في انتظار موسم الحمل.. الذي قد يأتي وقد لا يأتي!

وأعرف من الأصدقاء من مرت عليه أكثر من عشر سنين.. وهو ينتظر الولد.. وقد أجريت لزوجته كل الفحوص الممكنة.. وكان الجواب: ليس لديها مانع طبي للحمل! ولا تحتاج إلى أي علاج! وبعد تلك السنوات العشر.. بل أكثر.. جاءت بنت.. وتتابع بعدها الإنجاب!

وأعرف صديقاً آخر. تزوج من فتاة لم تتم دراستها الثانوية.. ومرت عليه السنوات.. فأنهت الثانوية ثم الدراسة الجامعية.. وبعد ذلك بمدة.. يسَّر الله لها الإنجاب!

وأعجب من ذلك كله.. أن صديقاً آخر، قد أنجبت له زوجته ذرية.. ثم انقطعت عن الإنجاب سنوات طويلة.. وكبر أولاده.. واشتاق إلى الإنجاب من جديد! ويبدو أنه يئس أن يكون ذلك من زوجته.. فخطب امرأة أخرى! ووقع بعد أن عقد العقد ما لم يكن بالحسبان حيث يسر الله للزوجة الأولى الحمل!! ورأى في موقفه شيئاً من الحرج.. فمضى إلى زوجته الأولى يقول: إن شئت طلقت

الزوجة الجديدة قبل الدخول! فقالت: بل امضِ على بركة الله!

وتم الزواج.. وحملت الزوجة الجديدة..

ورزقه الذرية من الأولى والثانية!!

وكل شيء عند الله عز وجل بأجل! ولكل أجل كتاب.

والقصص في هذا الشأن كثيرة! والناس يستعجلون! وتأكل قلوبهم المخاوف! ولا يخفى ما قد يكون للأهل.. أهل الزوج من دور في هذا الشأن.. حيث يتابعون أمر الزوجة بشك وحذر.. (هل حملت؟!) إنه سؤال يواجهون به ابنهم حتى يقضي الله بالحمل الأول!

ويظل الزوج في ضيق.. وتظل الزوجة في هم! والأمر ليس للزوج ولا للزوجة.. بل لله الذي ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

ومن عجيب أمر الناس.. أنهم يسألون عن الحمل.. حتى إذا تم وقدره الله.. انتقلوا إلى سؤال جديد: أذكر أم أنثى؟!

فإن كان أنثى وتتابع إنجاب المرأة للإناث بحثوا لابنهم عن زوجة يرجون منها الذكور!!

وذلك من جهل الناس بالغيب وحقائق العلم!

ومن أعجب ما علمت في هذا الشأن أمر رجل فاضل تزوج من امرأة فاضلة.. ومضت بهما الأعوام.. ولم ييسر لهما الإنجاب.. وقد جاءهم رأي الطب: أن لا مانع لدى كل منهما من الإنجاب، ولكن..

لو تزوجت غيره.. لكان مجال الإنجاب أكبر!

ولو تزوج غيرها لكان الأمر كذلك!

وحين عرفتُ ذلك الرجل كان عمر زواجه أكثر من خمسة وعشرين عاماً!

لقد اتخذ وزوجته القرار.. نرضى بقدر الله..

وعاشا حياة طيبة ورضيا أن يريا في ذرية إخوانه وإخوانها صورة الأبناء.. ولم يفترقا.. ولم يسع الرجل إلى زوجة أخرى!

البيت أولاً

أوجد الله تبارك وتعالى المخلوقات، وجعل لكل منها وظيفة، وهيَّأه للقيام بها، بما آتاه من خصائص، وما زوده من قدرات.

وإذا نظرنا في النوع الإنساني وجدنا ذكراً وأنثى، يستويان في البشرية، ويستويان في التكليف بمقتضيات العبودية لله عز وجل، ولكن بين المرأة والرجل فروقاً في التكوين الجسدي، والتكوين النفسي وفي الوظيفة التي يستطيع كل منهما أن يؤديها.

وعندما تستقيم الحياة مع الفطرة، ويستمد الناس فهمهم وضوابط حياتهم من شرع الله، لا تقع مشكلة في شأن المرأة والرجل، بل لا توجد قضية خاصة بالمرأة وحقوقها، لأن المرأة المسلمة تعرف حدها، وحق الله عليها، وحق أسرتها.

وكذلك الرجل، فلا يتعدى حدود الله، ولا يظلم. وإن حدث شيء من ذلك كان له من يقيم الحق في المجتمع بالمرصاد ليرد الحقوق إلى أهلها.

وفي غيبة التصور الإسلامي والانضباط بشرع الله تنشأ المشكلات.

وهذا ما حدث في عدد من المجتمعات الإسلامية المعاصرة والسالفة، حيث مر على هذه المجتمعات حين من الدهر ساد فيه الجهل بالشرع، وترك الالتزام به، فكان الظلم. ولما وقع الاتصال بالحضارة الغربية بدأ التأثر بما فيها من القيم والعادات وأخذت تنشأ في مجتمعاتنا مشكلات جديدة للأسرة المسلمة.

ومن أبرز المشكلات المعاصرة هي عمل المرأة.

إن عمل المرأة في بعض الأحيان ضرورة اجتماعية، فهناك وظائف لا يصلح للعمل فيها إلا النساء.

وهو ضرورة اقتصادية أحياناً لأن ظروف الأسرة الاقتصادية تدفع إلى ذلك.

وهو تضحية تقدم عليها المرأة، وواجب إضافي إلى أعباء البيت وواجباته، والإنجاب ومشقّاته.

وعمل المرأة ضرورة إنسانية في بعض الأحيان تثبت به إنسانيتها، وتستثمر ما أوتيت من طاقات عقلية، وتؤدي لمجتمعها خدمات في أوقات فراغها.

ولكن ينبغي أن يظل نصب عيني المرأة في كل أحوالها شعار هو: البيت أولاً، لأن البيت هو مقر المرأة الأول، بل هو قاعدتها التي منها تنطلق لتمارس أدوارها في مختلف المواقع المتاحة.

إن مسؤولية المرأة في بيتها لا تقل عن مسؤولية الرجل في خارجه.

ولكن يبدو أن هذا الدور بحاجة إلى إبراز إعلامي يعلي من قيمته، حتى لا يظل في الأذهان مرتبطاً بالكنس والطبخ والغسل، بل هو إدارة لمؤسسة البيت بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

الفصل الثالث

مشكلات في الحياة الزوجية

* السلوك التقليدي .
* الشكوى .
* الرتابة .
* النكد .
* الغيرة .
* كفران المودة .
* تدخل الآخرين .
* التعدّد .
* النهاية غير السعيدة .

السلوك التقليدي

من مشكلات الحياة الأسرية أن أنماط السلوك فيها تجري في الغالب تقليداً لأنماط مختزنة في الذاكرة، أو مكتسبة من النظر في سلوك الآخرين.

كثير من الأزواج والزوجات يعامل الآخر كما كان أبوه يعامل أمه، أو كما كانت أمها تعامل أباها. وقد يكون هذا السلوك إيجابياً واعياً. . كما قد يكون سلبياً لا إرادياً!

وقد يحدث العكس. . أي قد نجد زوجاً نشأ بين والدين لم تكن العلاقة بينهما سليمة. . واختزن أنماط سلوك سلبية، ثم أخذ يسلك في حياته الزوجية سلوكاً مناقضاً لها.

ولكيلا يكون السلوك الأسري تقليداً لا إرادياً أو سلوكاً منعكساً عن أنماط مختزنة. . لا بد من التفكّر والتدبر فيه من قبل ومن بعد!

لا بد من وضع تصور لحقوق الزوج. . وحقوق الزوجة. . والنظر إلى الأسرة باعتبارها مؤسسة تقدم نفعاً للطرفين، وهي نوع من (الاستثمار) المستقبلي الذي ينمو

من خلال العلاقة الطيبة والمنفعة المتبادلة، ومن خلال ما قد يكرمها الله عز وجل من الذرية الصالحة التي هي خير عدة للمستقبل المنظور، والمستقبل البعيد، حيث يكون الولد الصالح أو البنت الصالحة امتداداً طيباً للمرء بعد رحيله عن الدنيا.

وإذا نُظر إلى الحياة الزوجية بهذا المنظار استبعدنا أنماطاً من السلوك العدواني من أحد الطرفين! حيث نحس أن بعض الأزواج والزوجات يمارس نوعاً من الانتقام من الطرف الآخر، لا باعتباره الفردي، بل بالنظر إلى جنسه!

بعض الرجال يريد أن (يطوع) المرأة لسلوك مختزن عنده!

يريدها أن تكون (كالساعة) لا تقدم ولا تؤخر.. في سلوك آلي يتجاهل الحقوق الإنسانية!

وقد يمارس لإثبات ذلك أنواعاً من الممارسات غير الإنسانية أو غير الإسلامية.. من تجاهل للمشاعر بل إساءة بالكلمة أو النظرة أو يتعدى ذلك إلى الضرب غير المبرر شرعاً أو منطقاً!

وكذلك بعض الزوجات يمارسن نوعاً من السلوك العدواني تجاه جنس الرجال من خلال الزوج!

فنرى تسلطاً من الزوجة وبخاصة إذا لم يكن الزوج من أصحاب الشخصية القوية، أو لم يكن يملك بعض مصادر القوة. . من الشباب أو المال أو المنصب!

وقد يكون مثل هذا السلوك مصاحباً لكل هذه المصادر إذا كانت شخصية الزوجة من النوع الطاغي!

هذه الأنماط من السلوك تكشف عن خلل في النظرة إلى الحياة الزوجية. .

إن الزواج ليس تسلطاً ولا قهراً من طرف لآخر، ولا هو طمس شخصية أو محو معالم وجود!

إنه اقتران بين شخصيتين متمايزتين. . لكل منهما خصائص. . وسلبيات وإيجابيات ومن هنا. . ينبغي اتخاذ قانون التعايش أساساً لهذه الحياة لكي تكون حياة سليمة!

وهنا نستذكر قولاً لرسول الله ﷺ بشأن الحياة الزوجية القائمة على النظرة المتوازنة إلى الشخصية «لا يَفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر».

وقول عمر بن الخطاب لذلك الرجل الذي جاءه يريد طلاق زوجته بدعوى أنه لا يحبها. . فقال له: «وهل كل البيوت تبنى على الحب، فأين الرعاية والتذمم؟».

إنها النظرة السليمة إلى الحياة الزوجية التي تنتج سلوكاً سوياً يبني أسراً على أساس متين لا على أساس هش من الأوهام والأحلام.

الشكوى!

يشكو كثير من الناس من حاله في بيته!

ذلك أن البيت لديهم هو مركز الهم، ومصدر القلق! وغير هذا أرادوا عندما فكروا في الزواج، وحلموا ببيت ترفرف عليه السعادة، ويغمره الحب والحنان!

يستذكر الواحد منهم أيام أقبل على الزواج.. بالفرح والأمل.. وما أحاط بالزواج من مشاعر ورؤى، ثم يرى كثيراً من ذلك قد تبخّر وصار حلماً من الأحلام الضائعة!

صحيح أن البيوت لا تقام كلها على الحب.. بل تقام على الرعاية والتذمم كما يروى عن عمر رضي الله عنه، ولكن لا بد من المحافظة على حد أدنى لا يجوز التنازل عنه!

لقد بين الله عز وجل أن من آياته في حياة البشر أن خلق من أنفسهم أزواجاً وجعل بينهم مودة ورحمة، فهل يجوز التنازل عن المودة والرحمة في الحياة الزوجية؟!

ليس المطلوب أن تكون العلاقة بين الزوجين كحال قيس وليلى!

بل المطلوب الكلمة الطيبة، والنظرة الحانية، واللمسة المذهبة لتعب النفس والجسد بعد يوم من العمل والجهد!

ليس من المودة والرحمة أن يقبل الرجل على البيت فلا يتحرك فيه شيء!

فلا الزوجة تقبل بوجه باسم وكلمة طيبة. ولا الولد يقبل على الوالد بلهفة يحمل عنه ما بيده من متاع جاء به لأهل البيت.

وليس من المودة والرحمة.. أن يستقبل الزوج بسؤال حساب.. أين كنت؟ ولماذا تأخرت؟ ثم بقائمة طويلة من ألفاظ التذمر والشكوى من الأولاد ومشكلاتهم، وكأن الزوج كان في عمله في حفلة سمر أو في رحلة استرخاء!

وليس من المودة والرحمة رشق الزوج بالشكوى من البيت وأعبائه، مع أن ساعات طويلة تضيع على الهاتف.. بلا حساب.. وأمام التلفزيون بلا حساب.. وفي زيارات.. بلا حساب.. كل ذلك يبعث على الشكوى أما ساعات معدودة في الطبخ وترتيب البيت.. فإنها أثقل من الجبال على الكتفين!!

لا بد ليستمر قطار الحياة الزوجية بأمان من أن يُدرك كل من الزوجين وظيفته في هذه الحياة، ويرضى بموقعه فيها، ويعين الطرف الآخر على ما هو فيه.

لا بد من السعي إلى أن يكون البيت واحة الأمان النفسي . . وملجأ الإنسان المريح بعد يوم من التعب .

أما أن يصبح البيت مبعث الشكوى وأن يجد الإنسان راحته في عمله ومع أصدقائه أكثر مما يجدها في بيته . . فتلك طامة كبرى . . لا بد من السعي إلى إزالتها !

شيء قليل من التفكير والتقدير . . ومحاسبة النفس ووضع الأمور في نصابها يصلح كل شيء ! !

الرتابة

إن من مشكلات الحياة الأسرية الرتابة التي تصيبها.

ويبدو أن طول مصاحبة أفرادها بعضهم لبعض يفقدهم الحيوية في العلاقة ويورث نفوسهم السآمة والملل.

وقد تسود العلاقة جدية زائدة، ويتحول التعامل بينهم من مودة ومحبة وحرص إلى شيء من الجدية الصارمة التي تثقل على النفوس.

وتتولد وبخاصة في نفوس الأبناء والبنات مشاعر غير سوية تجاه الوالدين اللذين يدفعهما الحرص إلى شيء من القسوة عملاً بقول الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً

فليقسُ أحياناً على من يرحم!

وللخروج من هذه المشكلة لا بد من اصطناع الوسائل التي تكسر روح الرتابة، وتقطع الجدية، وتخفف من القسوة.

وإن لمجلس الشورى في الأسرة أثراً في هذا المجال، كما أن لمجلس العلم الأسري أثراً كذلك.

ومما يسهم في هذا كذلك جلسات المودة التي يتخفف فيها أفراد الأسرة من القيود.

وقد رأينا في حياة الرسول نماذج مما ينبغي أن يفعل!

فقد سابق الرسول عليه وآله الصلاة والسلام عائشة رضي الله عنها!

وهذا يدلنا على أن الرياضة الأسرية وسيلة من وسائل المودة فيها!

والمزاح الصادق الهادف وسيلة أخرى..

وقد علمنا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كيف يمزح المسلمون..

وهو في الأسرة وسيلة من وسائل إشاعة روح المرح.

وقد تكون طبيعة حياة أفراد الأسرة تدعوهم إلى الاستغراق في العمل أو الدراسة استغراقاً ينسيهم من حولهم.

ولذلك فمن الواجب انتشال النفس من هذا الجو باصطناع رحلات أسرية قصيرة إلى أماكن النزهة البرية في أيام الإجازات ونهاية الأسبوع من حين لآخر.

ومثل هذه الرحلات تضع أفراد الأسرة في مواجهة بعضهم، وتخرجهم من جو البيت وتقاليده الرتيبة.

وإن من مشكلات الأسرة المعاصرة جهاز التلفاز الذي يجعل عيون أفراد الأسرة مشدودة إليه، ويربط الألسنة، ليكون هو المتحدث الوحيد، فيذهل الحضور بعضهم عن بعض.

ومن المهم التخفيف من سلطان التلفاز وكسر هذا الجدار الذي يبنيه في البيوت لا بين أفراد الأسرة وحدها، بل بينهم وبين ضيوفهم الذين يزورونهم فلا يرونهم إلا عند الدخول وعند الوداع، وما بين ذلك تكون العيون مشدودة إلى التلفاز.

النكد

لا يمكن أن تكون الحياة الأسرية شهر عسل دائماً! فللحياة تكاليفها ومشكلاتها التي لا يمكن اجتنابها. فكما يمرض الجسد وتصيبه عوارض الضعف أحياناً ثم يستعيد عافيته فكذلك حال الأسرة فيما يعرض لها.

ومن عوارض الحياة الأسرية النكد الذي يشكو منه أفراد الأسرة جميعاً، بما يثيره بعضهم من مشكلات تعكّر صفو الأسرة وتولّد التوتر فيها.

ومن المهم ونحن ننظر في هذا العارض أن نميّز بين نكد دائم نابع من شخصية مريضة، ونكد طارئ ناتج عن منغص من منغصات الحياة.

وكذلك علينا أن نميز بين نكد نابع من الأسرة ونكد قادم من خارجها.

إذا كان أحد طرفي الأسرة مريضاً بالنكد! فإن حال هذه الأسرة ميؤوس منه. وكثيراً ما يكون ذلك سبباً من أسباب انهيار الأسرة في وقت مبكر أو وقت يطول أوانه.

والأمر هين إن كان النكد طارئاً، ومن مسؤولية طرفي الأسرة أن يعين الواحد منهم الآخر على تخطي هذا العارض.

إن ضيق ذات اليد وأعباء الحياة الاقتصادية سبب مهم من أسباب ضيق النفس وتوتر الأعصاب الذي يتجلى في النكد.

وإن مشكلات الأبناء والبنات سواء في ذلك مشكلات التربية أو مشكلات التعليم أو مشكلات المراهقة سبب آخر من أسباب النكد.

وإن متاعب العمل بل الخروج من البيت وقيادة السيارة والتعرض لمشكلات السير باعث من بواعث النكد.

فهل يستطيع الإنسان أن يضع في يومه وحياته حواجز تمنع تأثير جانب على جانب، ويضبط تأثير عوامل النكد على سائر أفراد الأسرة؟

ذلك ما أظن أن عليه القيام به.

ولعل لحظات الاسترخاء التي ينبغي أن تتخلل اليوم تكون عاملاً مساعداً على التخفيف من آثار التوتر العصبي الذي يولد النكد.

هذا إذا كانت النفوس سوية، وكانت عوامل النكد من داخلها.

وأما إذا جاء النكد من خارج الأسرة بقصد الكيد لها، والإساءة إلى بعض أفرادها فإن الأمر يستدعي مراجعة الأسرة لعلاقتها بالآخرين، ليعرفوا العدو من الصديق.

وقد يعجب المرء أن يأتيه السوء من أناس يديم الإحسان إليهم، ولا يضمر لهم إلا خيراً.

لقد علمنا الله عز وجل أن نستعيذ من شر الناس، والنكد من أسوأ ما يمكن أن يأتينا من أهل السوء.

الغيرة

الغيرة أمر لا بد منه في الحياة الزوجية!

وهي علامة من علامات حب كل من الزوجين للآخر..

وأذكر في هذا المجال أن أحد الزملاء في العمل كان يعبر لي عن شدة ضيقة من زوجته وسبب ذلك أنها لا تغار عليه! وقد كان يختلق قصصاً.. يحاول بها استفزاز زوجته.. ولكن من غير فائدة!

وإذا كان هذا الصديق بحاجة إلى الإحساس بغيرة زوجته.. فذلك لأنه يريد أن يعلم أن له في نفسها منزلة؟!

وفي مقابل هذا نجد كثيراً من الأزواج يضيق كل منهما بالغيرة التي يبديها الطرف الآخر.. لأنها تجاوز الحد الذي يعلم به مدى المنزلة.. إلى أن يصبح قيداً أو يصبح مصدر تنغيص في الحياة!

إن الغيرة كملح الطعام إن زاد أفسد..

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن بعض الأعمال قد تكون مثيرة للغيرة أكثر من غيرها!

فكل مهنة يكون فيها اتصال بين الرجال وانساء. . قد تكون مبعث غيرة. . وتختلف النساء في هذا الأمر. .

فمن النساء من هي واقعية النظرة. . معتدلة المزاج تُقبل على حياتها الزوجية وهي مدركة أن طبيعة عمل الزوج تقتضي صلة بالنساء. . من تجارة أو طب أو تعليم. . فتكون منها الغيرة التي تدفعها إلى حسن الصلة بالزوج لتملأ عليه حياته. . وتصد عنه كل ما يمكن أن يهبّ عليه من آثار عمله!

ومن النساء من تكون حادة المزاج. . تريد أن تفرض على الزوج القيود في مجال العمل وتتدخل بما ليس لها. . وكأنها تريد أن تغير مسار حياة الزوج. . وهذا ما يكون مبعث نكد وتنغيص. . وبخاصة إذا كانت الغيرة دافعاً لها إلى جفوة الزوج. . و(معاقبته) بالصدود. . !!

وكثيراً ما تكون مثل هذه الغيرة مدمرة للحياة الزوجية. . أو دافعة للرجل للبحث عن بديل للزوجة. . لأنه لا يجد منها الود والحب بل الصد. . والحرمان!

وإن من أسباب الغيرة. . أن يتحدث الزوج عن بعض ما يكون معه في حياته اليومية. . من مواقف قد تثير الزوجة.

ولذلك ينبغي أن يحرص الزوج على ألا يدخل آثار عمله في حياته الزوجية.

وقد حفظت لنا ذاكرة الزمن صوراً من الغيرة . .

ومن أشهرها . . ما كان من غيرة السيدة عائشة من السيدة خديجة . . مع أنهما لم تجتمعا في حياة النبي ﷺ! وقد كان سبب الغيرة كثرة حديث النبي ﷺ عن خديحة . . وحرصه على صلة ما كان متصلاً في حياتها . . فكان يُحسن إلى صديقاتها . .

وفي الحديث الذي رواه مسلم أن رسول الله ﷺ خرج من عند عائشة ليلاً فغارت عليه أن يكون قد ذهب إلى بعض نسائه، فلما رآها قال: «أغرت»؟ فقالت: «وهل مثلي لا يغار على مثلك»؟! فقال: «لقد جاءك شيطانك»!

ولعل من المفيد هنا أن نتنبه إلى أن الغيرة قد تكون من الشيطان . . إن كانت في غير ريبة أو باعث حقيقي!

وقد ورد عن أبي الأسود الدؤلي أنه قال لابنته عند تزويجها: «إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق»!

نعم! لا بأس بالغيرة إن كانت علامة حب!

وأقبح بها أن تكون عامل هدم للحياة!

كفران المودة!

هل كفران المرأة للعشير هو اللون البارز في الحياة الاجتماعية.. أم أن الكفران ظاهرة مألوفة في علاقاتنا الاجتماعية؟

الكفر.. هو الستر والتغطية.. هو التعامي عن شيء موجود بشيء طارئ!

وإذا كان من النساء من تكفر عشيرها.. فإذا غضبت منه قالت: لم أر منه خيراً قط! ولم أهنأ معه بيوم! ولم.. ! فإن في العلاقات بين أفراد الأسرة الصغيرة.. وامتداداتها بين طرفي الأسرة ألواناً من الكفران!

فقد يقع بين الولد والوالدين! وذلك هو العقوق أو بعض مظاهره!

وقد يقع بين الإخوة.. فنجد أخوين تمر بهما الأيام والأسابيع والأشهر لا يلتقيان.. ولا يسعيان إلى الالتقاء! بل يتعمدان البعد والجفاء!

وقد يقع بين المرأة وأهل زوجها، وينعكس ذلك على جفوة في علاقتهم بابنهم..

فكم من أُم تمر السنوات ولا تطأ قدماها بيت ولدها! وإذا دخلته جاءت ضيفة غير مرحب بها. . وذلك بعض ما توارثته الأجيال من صورة تقليدية للعلاقة بين الكنّة والحماة! حتى قال الشاعر:

إن الحمـــاة أولعـــت بـــالكنّـــه

وأولعـــت كنتهـــا بـــالظِّنَّـــه!!

وقل مثال ذلك في أخت الزوج أو غير ذلك من أقاربه!

وقد يقع العكس حين توجد الجفوة بين الزوج وأهل زوجته. .

فيحرم الزوج زوجته من زيارة أهلها. . من أب أو أم أو أخت. . بدعوى أنها ترجع من زيارتهم وقد انقلبت مشاعرها وساءت معاملتها!

وترى أثر ذلك في انقطاع العلاقة أو فتورها بين أهل الزوجة وصهرهم!

ولو قلّبت الأمور على وجهها لوجدت أن كل ما يقع من ألوان الجفوة إنما هو ناتج عن تجاهل الوجوه الإيجابية في العلاقات الإنسانية. .

وقد نبه الله عز وجل إلى حقيقة لو رعاها الناس لما تعبوا ولما أتعبوا.. وتلك هي: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وهناك قاعدة ثانية لو روعيت لزال كثير من السوء.. وتلك هي البعد عن ظن السوء في تفسير ما يقع من أمور: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجرات: ١٢].

أليس ما حدثتكم عنه من أمر.. هو لون من ألوان الكفران.. كفران المودة التي ينبغي أن تكون بين الرجل وزوجته.. وبين الولد ووالديه وبين الزوجة والزوج وأهل كل منهما؟!

ولكنه الإنسان.. الذي يقع فريسة هوى النفس.. ووسوسة الشيطان!

تدخّل الآخرين

قال: هل يمكن أن تخلو حياة أسرة من الخلافات؟

قلت: لا أظن ذلك، لأن الاختلاف من طبع البشر، وليس المهم أن يكون الخلاف، بل المهم النظر في أسبابه، وطريقة علاجه.

قال: أترضى إن وقع خلاف بينك وبين زوجتك أن تتسرب أخباره إلى خارج حدود الأسرة؟ وهل تحب أن يتدخل فيه أحد؟

قلت: لا أرضى ذلك ولا أحبه، بل الذي ينبغي أن يكون هو كتمان الخلاف في أضيق حدود، بل حبذا لو لم يطلع عليه الأبناء في داخل البيت!

قال: إذاً. . اسمع مني ما سأقصه عليك، ثم هات ما عندك!

وقع بيني وبين زوجتي خلاف عارض، كان بسبب ملاحظات أبديتها سببت لزوجتي الضيق، وكنت نبهت على الأمر أكثر من مرة، ولكن أعباء الأسرة تحول بين زوجتي وبعض ملاحظاتي!

وقع الخلاف في زحمة من العمل، وأمور طارئة في الحياة شغلتني عن نفسي، فامتد ذلك الخلاف أكثر مما ينبغي، وفوجئت يوماً بزوجتي وقد حضر إلى البيت أحد محارمها للزيارة..

فوجئت بها تعرض عليه أمر الخلاف لا باعتباره أمراً عارضاً، بل باعتباره مشكلة تهدد الحياة الأسرية، فهي تطلب مساعدته ليحل مشكلتها!!

لقد عجبت أن الأمر قد تضخم في نفسها إلى حد لم أتوقعه!!

وعجبت لها وهي تتحدث بعد عمر طويل من العشرة، وكأننا زوجان نفتقد الحكمة، ونفتقد القدرة على حل المشكلات الطارئة في الحياة!

لقد أحسست وهي تتكلم أنني وإياها قد صغرنا كثيراً.. صغرنا كل في عين الآخر.. وصغرنا في عين ذلك القريب!

وكان يدور في خاطري وهي تتحدث سؤال: أبلغتُ حداً من السوء لا تستطيع معه زوجتي الحياة معي.. أو التفاهم معي؟

أليس لي من سابق العشرة في السنين الطويلة ما يُغطي على بعض ما يصدر من أخطاء؟!

كان الموقف محرجاً إلى الحد الذي تمنيت الانسحاب منه فقد تحدثت بأشياء كان لها من طرفي ردود فعل ما كنت أتمنى أن تكون.. وخرجت زوجتي مع قريبها بعض الوقت ثم عادت.. ولكن في النفس جفوة وفجوة!

قلت: لو تفكرت زوجتك في أمرها وتمهلت لما بادرت إلى كشف بعض أسرار الحياة الزوجية، وكان عليك ألا يطول الخلاف بينكما، ولو خطا واحد منكما إلى الآخر خطوة لما كان ما حدثتني به.

إن الحياة الأسرية في نظري كالبيضة التي تبقى سليمة ما لم تثقب، فإذا ثقبت ولو ثقباً صغيراً داخلها الفساد. والثقب هو تدخل الآخرين فيها.. وإذا وقع ذلك مرة فلا ينبغي أن يتكرر من بعد!

وإليك هذه التجربة المرة التي كنت شاهداً عليها:

أسرة حديثة النشوء.. ينتظر طرفاها المولود الأول بعد شهرين.

العلاقة بين الزوجين جيدة.. وعلاقتهما بأسرتيهما ممتازة.. يلقيان الإكرام والاحترام.

صحب الزوج والد زوجته في زيارة لصديق له.

ويبدو أن الزيارة قد طالت أكثر مما توقع.. فرجع إلى زوجته غضبان.. ودار بينه وبينها حوار انتصرت فيه لأبيها ولم تر من خطأ فيما كان من أبيها.

وثار الزوج.. وتبادلا كلاماً يبدو أنهما تجاوزا فيه حدود الاحترام الذي ينبغي أن يسود العلاقة الزوجية.

ولم يكن أحدهما حكيماً فيهدأ ليخفف من ثورة الآخر.. فانطلق لسان الزوج بالطلاق بالثلاث لزوجته!!

وذهبت الزوجة إلى بيت أبيها.. ولم تخبره بشيء مما حدث.

وجاء الزوج ليشكو زوجته وطول لسانها وأخذ في فتح ملف العلاقة بينه وبينها..

وفوجئ والد الزوجة بذلك.

وهنا اضطرت ابنته أن تخبره بما حدث.. وكانت الصاعقة التي غيرت صورة الصهر الذي كان يعامل بالإكرام والاحترام..

وأخذ والد الزوجة يسترجع علاقته به..

فهو لم يزوجه لمال أو منصب بل لحسن خلق ودين! وقدم له ولابنته كل عون ولم يبخل عليها بشيء.. لا سيما وأنه ميسور الحال..

وبدأت الاتصالات بينه وبين والد صهره.. وأقارب له.

واستشير أهل العلم في المسألة وكان الحكم أن الطلقات الثلاث يحسبن طلقة واحدة.

وكانت جلسة ضمت أطرافاً من الأسرتين وبعض الأصدقاء.. ورد الزوج زوجته إلى عصمته..

لقد كانت تجربة مرة..

وكان الزوج في موقف لا يحسد عليه.. أمام نفسه..

وأمام والده ووالد زوجته وبعض أقارب الأسرتين..

ومما زاد الأمر سوءاً ذلك الوقع النفسي السيّئ على الزوجة التي أدخلت المستشفى ووقع الخوف أن يحدث الإجهاض.. ولكن الله سلم.

ألم يكن بالإمكان اجتناب مثل هذا الموقف المحرج للزوجين، المقلق للأسرتين بشيء من الحكمة، وقليل من الهدوء.. على منهج الشعرة التي لا ينبغي أن يشدها الطرفان.. فإن شدّ أحدهما أرخاها الآخر؟!

التعدد

إن الخوف من الضرة.. يكون هاجس الزوجة الأولى!

فما من زوجة أياً كانت إلا تخشى من أن تمتد عين زوجها إلى امرأة أخرى..

ولذلك الخوف بواعث اجتماعية.. في المجتمعات التي تسود فيها ظاهرة التعدد.. وبواعث فردية.. من معرفة الزوجة بتطلعات زوجها.

إن المرأة تحب أن تمتلك زوجها.. وأن يكون لها منه النصيب الأكمل.. في قلبه وحياته.. ولا تحب أن يشاركها فيه مشارك!

وإن من بواعث الخوف من التعدد إلى جانب ذلك ما يتناقله الناس من خبرات.. عن آثار التعدد في حياة النساء.. وارتباطه لدى بعض النساء بالظلم.. وهجر الزوجة الأولى.. وإهمالها وأولادها!

وإذا كانت هذه الصورة مخالفة للأمر الشرعي بالعدل فيما يملك الإنسان..

ومخالفة لكثير من واقع من عدّدوا وعدلوا وأحسنوا. .

فإن الصورة السلبية أكثر انتشاراً في أذهان الناس من الصورة الإيجابية .

وإن مما يكثر تداوله بين الناس ما يكون من بعض الرجال حين يكون حالهم ميسوراً ويرضى بزوجته الأولى. .

فإذا يسر الله حاله. . وأنعم عليه بالمال الوفير، يكون أول ما يكافىء به الزوجة الأولى. . ضرة ينغص بها حياتها معه. وتجعلها تقول: ليتنا بقينا على حالنا الأول. . ولم نغن غنى يفسد حياتنا!!

إن الخوف من التعدد. . قد يكون في كثير من مجتمعاتنا المعاصرة وهماً أكثر منه واقعاً! وإذا كان التعدد ممكناً في المجتمعات الإسلامية التي تعيش رخاءً مادياً عاماً. . فإن واقع المجتمعات الإسلامية الأخرى بخلاف ذلك. .

وإن من الملاحظ ارتفاع سن الزواج في تلك المجتمعات. .

فقد يبلغ الشاب الخامسة والعشرين وما فوق ذلك إلى الثلاثين. . وهو غير قادر على الزواج. .

وربما يعيش بعد ذلك سنين وهو يسدد أقساط زواجه. .

فأنى لمثل هذا الرجل أن يعدد؟! ومن ورائه تكاليف الحياة. . ونفقات العيال. . الذين لا يستقلون عن أسرتهم قبل عشرين سنة أو تزيد؟!

لن أدخل في الأمر الفقهي للتعدد. . ولكنني من واقع النظرة الاجتماعية أقول: إن التعدد يرتبط في كثير من الأحيان بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

ففي البوادي والأرياف. . يكون التعدد في كثير من البلاد ميسراً أكثر من المدن. . لقلة تكاليف الحياة. . وتقبل الناس له من غير عوائق. . ولكونه سبباً في كثرة النسل التي تعين على القيام بواجبات الحياة في الريف والبادية.

وأما في المدن. . فإن طبيعة الحياة تنحو بالناس بعيداً عن التعدد. . لا عن عدم رغبة فيه. . بل عن عجز عن القيام بما يقتضيه، وتجارب كثير من المعددين دليل على ذلك.

ومع هذا كله.. يبقى الخوف من التعدد هاجساً في ذهن المرأة.. وخوفاً يلاحقها.. ومثل هذا الهاجس ينبغي أن يكون دافعاً لها إلى التودد إلى الزوج.. لتملأ عليه حياته بما ينسيه الرغبة في التعدد.. ويجعله يجد منها ما قد يرجوه في غيرها..

النهاية غير السعيدة

حياة الأسرة كجسم الإنسان معرضة للأمراض خفيفها وثقيلها.

فهناك من المشكلات ما هو كالصداع العارض الذي يذهب بحبة من دواء مسكّن.

وهناك ما يحتاج إلى مراجعة طبيب والمداومة على العلاج مدة معينة.

وهناك من الأمراض ما هو مزمن يمكن التعايش معه وفق نظام معين كالسكري والضغط، وهناك ما هو مرض خبيث يؤدي إلى تدمير كيان الأسرة ولو بعد حين.

خطر لي هذا الخاطر بعد أن سمعت خبراً عن صديق لوالدي رحمه الله جاوز الثمانين من العمر، وقد وقع الفراق بينه وبين زوجته في هذه السن المتقدمة.

واستذكرت حال صديق آخر لي في منتصف العقد السادس من عمره، وقد صار جداً، وتركته زوجته منذ سنوات قليلة!

قد يكون من المقبول عقلاً أن تحدث هزات عنيفة في

الأسرة في سنوات الزواج الأولى، وذلك لأنها مرحلة التجربة والتأسيس. حيث يلتقي الزوجان في الغالب من غير معرفة سابقة.

وتكون مرحلة التوافق بين طباع مختلفة، ومناهج في العيش غير متطابقة.

ثم تكون الحياة في هذه المرحلة في بدايتها، والأمل ممتد أمام الزوجين.

وقد تكون الخيبة التي يكشف عنها الواقع غير المتوقع سبباً في انهيار الحياة الزوجية.

أما أن يزلزل بنيانها بعد عشرة طويلة توجب حقاً لكل من الزوجين على الآخر.

وفي مرحلة كبر فيها الأولاد.. وامتدت الأسرة فصارت أسراً. أن يتم ذلك.. فهو الأمر الخارج عن حدود العقل والمنطق!!

إنه محير يدع الحليم حيرانَ.

فهل هو ناتج عن خلل نما عبر السنين ولم يتنبه إليه الزوجان، فكان كالصَّدع في البنيان يبدأ صغيراً ثم يتباعد طرفاه؟

أم هو ناتج عن صبر تسلى به أحد الطرفين لأمر لم يعجبه في الطرف الآخر ومنّى النفس بزواله.. ولكنه لم يَزُل فنفد الصبر؟

حياة بعض الأزواج شهر عسل دائم إلا قليلاً..

وحياة بعضهم عُمر علقم يشوبه العسل!

ولكننا نتذكر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جاءه رجل يشكو إليه أنه لا يحب زوجته.. فقال: «وهل كل البيوت تقوم على الحب؟ فأين الرعاية والتذمم»؟

نعم.. أين الرعاية والتذمم في الحالتين اللتين أشرت إليهما وفي أشباههما!

الفصل الرابع

ثقافة الأسرة

* التكوين الثقافي .
* مجلس العلم .
* دليل مكتبة الأسرة المسلمة .
* موسوعة للثقافة الأسرية .

التكوين الثقافي

هذا العصر الذي نعيش هو عصر ثورة المعلومات أو عصر الانفجار المعرفي، ومن المهم أن يكون في بؤرة التفكير في واقع الأسرة، تكوينها الثقافي، وصلتها بمصادر المعلومات المختلفة.

لقد كان الكتاب حتى عهد قريب المصدر الأول لتلقي المعرفة.

ولكن مصادر أخرى زاحمته، وهي لا تقل عنه قيمة بل ربما تزيد.

ومن تلك المصادر الدوريات التي تنقل للقارئ معلومات مكثفة جديدة، قريبة المأخذ سهلة المنال.

فما موقع مصادر المعلومات في الأسرة؟!

لا بد من وجود مكتبة للأسرة.. فيها الكتاب والدورية أولاً..

وهذا يقتضي التخطيط لما يدخل البيت من كتاب أو جريدة أو مجلة.. بمراعاة الحاجات المختلفة لأفراد الأسرة كافة.

فالكتب في هذه الأيام متوافرة للأعمار كلها، وكذلك الجرائد والمجلات.

إن طوفان المطبوعات يجعل من الضروري حسن الانتقاء للأجود والأكثر فائدة.

ومن المشكلات الملحوظة في هذا المجال أن أفراد الأسرة لا يستفيدون من الكتب والمجلات حق الفائدة.

فتراهم يكتفون باستقبال الكتاب أو المجلة بنظرات عابرة، أو تقليب للصفحات، وقراءة للعناوين.

وهذه إحدى مشكلات عصرنا الحديث التي أسميها ثقافة العناوين.

فلا بد من متابعة أفراد الأسرة بما يدفعهم إلى الاستفادة من الكتب والمجلات أقصى فائدة متاحة.

ولم يعد الكتاب والدورية المصدرين الوحيدين للمعرفة، فهناك وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، ولئن كان للترفيه في هذه الوسائل مكان رحب، فإنها مصدر مهم من مصادر الثقافة التي يسهل وصولها إلى الناس كافة في مستوياتهم المختلفة، ولكن هذه الوسائل في حاجة إلى مراقبة لأن تركها بغير رقابة أو توجيه يترك آثاراً ضارة في عقول أفراد الأسرة وأخلاقهم.

ومن مصادر المعلومات المهمة التي غزت مجالات الحياة المختلفة، وللبيوت نصيب من هذا الغزو: الحاسوب هذا الجهاز الذي أرى أنه منعطف بارز في التاريخ البشري سيأتي على الناس زمان يؤرخون به، وهو مصدر مهم من مصادر المعلومات، يختصر الوقت والجهد في الوصول إلى ما نريد من المعلومات، فضلاً عن كونه بوابة إلى عالم «الإنترنت» هذا العالم الذي يقدم معلومات لا حدود لها فيما نرغب وما لا نرغب، وهو بحاجة إلى التوجيه الذي يؤدي إلى حسن الاستخدام.

مجلس العلم

الأسـرة مـأوى الإنسـان، وملجـأ الأمـان النفسـي والاجتماعي والمادي، يعيش فيها حيناً من الدهر ثم ينفصل عنها لينشئ أسرة جديدة.

وفي الأسرة يتلقى مبادئ الحياة، ويتلقى تصوره عن الوجود.

وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه، أو ينميان فيه الفطرة السوية فينشأ على التوحيد ويسير في درب الإسلام.

إن الإنسان يتلقى كل ذلك من الأسرة تلقياً عفوياً وبخاصة في المجتمعات التي فيها الأمية.

ولكن ينبغي أن تختلف الحال حين يكون ركنا الأسرة (الأب والأم) متعلمين.. حيث ينبغي أن يجتمع إلى التعليم بالقدوة أو التعليم الشفوي تعليم مقصود.. ويتم ذلك في (مجلس علم) يُعدُّ في الأسرة!

وإذا كانت المدارس تقوم بواجب التعليم المبرمج وفق مراحل متدرجة فإن ذلك لا يغني عن مجلس العلم الأسري.

ذلك لأن مناهج التعليم في كثير من بلاد الإسلام لم تراع التصور الإسلامي للحياة، بل دخلتها أفكار ومبادئ تغاير الإسلام، ودخلتها التصورات الغربية للإنسان ووجوده، مما يجعل من واجب الأسرة تصحيح المفاهيم وتعديل التصورات.

هذا فضلاً عن النقص الذي قد يكون في بعض جوانب المنهج، أو التقصير من بعض المعلمين في أداء الواجب.

إن كثيراً من التصورات المغلوطة، عن الوجود، وعن التاريخ وعن الواقع تتسرب إلى عقول الأبناء في المدارس والجامعات.

ولا بد من متابعة ركني الأسرة المتعلمين لذلك، ومحاورة الأبناء فيما يتلقون.

وليس لمجلس العلم الأسري هذه الفائدة وحدها.

بل هناك فائدة لا تقل عنها وهي أن جوّاً من المودة لا بدّ أن ينشأ في هذا المجلس.

فمن المؤسف أن علاقات أفراد الأسرة قد تصبح فاترة لا يلتقون إلا على مائدة الطعام أحياناً.

أو قد تكون مبنية على الأوامر والنواهي، أو على التذمر والصياح.

ويأتي مجلس العلم ليغيّر هذا الواقع غير السوي.

وليس شرطاً أن يكون المتحدث في هذا المجلس الأب وحده.

فقد يكون ذلك حيناً.

وتكون الأم حيناً.

ويكون بعض الأبناء والبنات من ذوي التعليم المتقدم حيناً آخر.

وهذا الأمر يعطي لأفراد الأسرة مكانة في نفوس بعضهم، ويؤهلهم للحياة حيث ينمي فيهم جوانب من شخصياتهم هم بحاجة إليها في حياتهم العامة.

إنها فكرة جميلة.. فهل نستطيع تطبيقها في حياتنا؟

وهل يتعاون أفراد الأسرة جميعاً على تحقيقها؟

دليل مكتبة الأسرة المسلمة

لقيت ثقافة الأسرة اهتماماً جدياً من عدد من الباحثين ومن الجهات العلمية المهتمة بها. ومن أمثلة ذلك كتاب: «دليل مكتبة الأسرة المسلمة» الذي وضع خطته وأشرف على إعداده الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، وأسهم في إعداده عدد من الباحثين. وصدرت من هذا الكتاب ـ فيما أعلم ـ طبعتان: الأولى سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. والثانية مزيدة ومنقحة سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م. وزادت صفحاته عن ستمئة وثمانين من القطع الكبير.

وقد جاءت فكرة إخراج هذا الكتاب استجابة لأمور ثلاثة هي:

- ضعف ثقافة الفرد المسلم والناشئة لقلّة الكتب التي تعرض المعرفة من وجهة نظر إسلامية.

- والأمر الثاني هو مواجهة الغزو الفكري الذي يتعرض له المجتمع المسلم.

- والثالث هو تحقيق أكبر قدر من الوحدة الفكرية بين المسلمين.

وجاء هذا الدليل شاملاً لكل ما يتوقع أن يفيد الأسرة المسلمة بكافة أفرادها. وأريد له أن يكون مرشداً أميناً يساعد أفراد الأسرة والمدرسين والدعاة في اختيار الكتاب المناسب للموقف الذي يواجهون. وقد بلغت مجالات المعرفة التي طرقها الدليل أربعة وعشرين مجالاً. وتم اختيار عدد من الكتب في كل مجال وأعدت عن كل كتاب نبذة تعريفية، ويجد القارئ بين يديه بدائل لكل كتاب. وبعد ذلك يجد قائمة بكتب أخرى من غير تعريف بها، ولكنها تضع أمامه خيارات متعددة وتمده بمعرفة طيبة بعناوين الكتب.

لقد حقق الكتاب ما وجد من أجله، وهو يقدم فائدة طيبة لمن يريد. وإنني أتمنى أن يتحقق لهذا الكتاب وفكرته عدة أمور منها:

أولاً: المراجعة الدائمة التي تعتمد الحذف والإضافة ليظل الدليل معاصراً مواكباً للمتغيرات الثقافية.

ثانياً: اختصار التعريف ببعض الكتب لإتاحة المجال لإدخال بعض الكتب إلى الدليل.

ثالثاً: إصدار الدليل في طبعة شعبية لينتشر في أكبر مدى ممكن.

رابعاً: أن يتم التنسيق بين المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي تبنى إصدار الكتاب وبين عدد من دور النشر لتحقيق الفكرة التي وردت في مقدمة الكتاب بإصدار طبعة موحدة شعبية من الكتب التي عرف بها الدليل لتكون في متناول أيدي أفراد الشعوب الإسلامية كلها ولتحقيق فكرة إنشاء مكتبة للأسرة المسلمة.

موسوعة للثقافة الأسرية

لم تعد الحياة في زماننا كشأنها في زمان سبق، حيث كان المرء يكتسب خبرة الحياة اكتساباً عفوياً من اتصاله بمن حوله.

فعصرنا عصر العلم والمعرفة التي تحتاج إلى قصد في اكتسابها، وتعب في الحصول عليها، ذلك لأن ما أنتجته الحضارة المعاصرة من وسائل، وما أوجدته من نظم يلزم بضرورة العكوف على ما يريد الإنسان اكتسابه.

ويصدق هذا القول على الحياة الأسرية التي لم يعد يصلح لها اكتساب الخبرات من الحياة الأسرية التي ينشأ فيها المرء، فإدارة المنزل، واقتصاد المنزل، وتربية الأولاد في مختلف مراحل العمر...

ذلك كلّه بحاجة إلى معرفة مكتسبة.

ولئن كان من المتعذر على كثير من الناس أن يلتحقوا بدورات في مختلف شؤون الحياة الأسرية، فإن من اليسير على كثير منهم أن يوضع بين يديه كتاب جامع في الثقافة الأسرية يقدم له كل أو أكثر ما يحتاج إليه، ويكون مستشاراً له في كل ما يطرأ من أمور الأسرة.

وعصرنا هذا عصر الموسوعات العامة والخاصة.

والعام منها ما يتناول جوانب المعرفة المختلفة، ويقدم للقارئ شيئاً عن كل شيء والخاص يقدم كل شيء عن كل شيء.

وهذا ما أعنيه بموسوعة الثقافة الأسرية التي يفترض أن تقدم كل شيء عن الأسرة وشؤونها.

وقد لا يستطيع تأليف هذه الموسوعة فرد واحد بل ينبغي أن تتبنى الفكرة دار نشر أو جهة علمية، وتشكل لجنة من مجموعة من المختصين في الصحة وعلم النفس والتربية وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وغير ذلك من العلوم التي تخدم الثقافة الأسرية وتوضع خطة لمحتوى الموسوعة، وخطة لإنجازها لتكون في حجم مقبول لا يتضخم فيكون عبئاً مادياً، ولا تكون في حجمها عبئاً على من يتعامل معها.

وأقترح ألا يزيد حجمها عن مجلد واحد من القطع الكبير. وهذا الحجم يفرض حسن اختيار لما يورد فيها، واختصاراً لما يفيد الأسرة فائدة حقيقية.

إنني أعلم أن هناك كتباً ألفت في كل جزئية من جزئيات الحياة الأسرية ولكن قد يكون من العسير على كل أسرة أن

تنشئ مكتبة خاصة بالثقافة الأسرية، ويكون من اليسير أن تجمع المعلومات اللازمة لها في مجلد يختصر ما هو مفرَّق في مكتبة!

لقد دخل الحاسوب إلى بعض البيوت لعبة يتسلى بها الأطفال وغيرهم من أفراد الأسرة، ولكن من المهم أن يستفاد منه أقصى ما تكون الفائدة، فقد يسر للإنسان ما كان عسيراً، واختصر الوقت والجهد، فمن المهم أن ينال أفراد الأسرة تدريباً عليه يمكنهم من الحصول على مقدار من الثقافة لا ينالونه بغيره.

الفصل الخامس
في اقتصاد الأسرة

* النزعة الاستهلاكية .
* في التدبير المنزلي .
* الاقتصاد المنزلي .

النزعة الاستهلاكية

النزعة الاستهلاكية ظاهرة بارزة في المجتمعات الحديثة.

ومما ينميها هذا التبرج للأشياء. .

فالأسواق عامرة بالبضائع.

ومحلات (السوبر ماركت) تعرضها عرضاً يغري من يملك ويحزن من لا يملك.

وتزيد من حدة الظاهرة دعايات التلفزيون والصحف التي تدخل كل بيت وتغري بالشراء.

وإن من مشكلات هذه النزعة أنها أخفت عن الناس ما هو ضروري وما هو زائد عن الحاجة ممّا يمكن أن يستغنى عنه.

فصارت الكماليات ضروريات!

ولنضرب على ذلك مثلاً هذه المشروبات الغازية التي صارت من ضرورات الحياة ولها ميزانيتها الخاصة.

هذا فضلاً عن أنواع الحلويات و(الشيبس) وأصناف أخرى صارت مقدمة على أساسيات الحياة!

وهذا الأمر يشكل عبئاً كبيراً على ميزانية الأسرة المحدودة الرزق التي تنمو لدى أفرادها هذه النزعة المسرفة.

إن البضائع بشتى أصنافها تعرض في كل عام بل في كل موسم بما تعجز عن مواكبتها أكثر الأسر رخاء.. فكيف بالمتوسطة وما دونها؟

هذا الأمر يقتضي اتباع منهج عقلاني في ضبط رب الأسرة للنزعة الاستهلاكية لدى أفرادها..

سواء في الملابس التي تشترى ولا تلبس وينتهي موسمها فتهدى أو يتصدق بها!

أو في الإسراف في الطعام أو الشراب الذي يولد الأمراض ويزيد من البدانة فيسعى من يصابون بها إلى وسائل مكلفة للتخلص منها!!

إن مشكلة الاستهلاك غير المنضبط تنمو مع الأجيال الجديدة التي عاشت في ظلال النعمة التي مَنَّ الله بها على الناس في هذا العصر بالرخاء المادي.

وما لم توجه هذه الأجيال التوجيه السليم فإن إسرافها سيقودها إلى الإفساد في الأرض، أو إلى الإفلاس..

وتلك مسؤولية تربوية مهمة على الأسرة أن تقوم بها.

وعليها أن تسترشد بالقواعد القرآنية التي تحدد المنهج المرضي السديد: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وإذا كان للإنفاق على النفس لذة فإن على الأسرة أن تنمي في نفس أبنائها لذة العطاء. سواء أكان هدية أو صدقة أو إحساناً.

فلذة العطاء لدى الكرام لا تقل عن لذة الأخذ أو الإنفاق على الذات.

في التدبير المنزلي

يحلو لبعض الكتاب من دعاة تحرير المرأة أن يسمي النساء اللائي لا يخرجن من بيوتهن للعمل في المكاتب والدوائر والمصانع . . نصف المجتمع المعطل!

فهل المرأة العاملة في بيتها عاطلة عن العمل حقاً؟!

لو أنصف هؤلاء المتحدثون عن النصف المعطل في المجتمع لأدركوا أي عبء تقوم به المرأة في البيت . . وأي قدرة ينبغي لها أن تملك حتى تحسن إدارة بيتها!

لا أعني بحديثي المرأة المترفة التي تقضي نصف نهارها نوماً ونصفه الآخر حديثاً على الهاتف أو زيارة لهذه أو تلك، بل أعني أكثر النساء ممن يبدأن نهارهن وأمامهن عمل طويل؛ لنقف على جوانبه:

من عمل المرأة في البيت ترتيب غرف النوم بعد نهوض أهل البيت!

ومن عمل المرأة قبل هذا وبعده العناية بالأطفال وتنشئتهم النشأة السليمة!

ومن عمل المرأة توفير الجو الآمن لأفراد الأسرة جميعاً.

ومن عمل المرأة النظر فيما جد من الملابس التي هي بحاجة إلى الغسيل!

ومن عمل المرأة النظر في أمر المطبخ.. تنظيف الأواني ثم إعداد الطعام للذين سيعودون في موعد الغداء.

ومن عمل المرأة كنس البيت وترتيب نواحيه!

فهل هذا العمل الذي تقوم به يكافئه أي عمل تقوم به امرأة عاملة خارج البيت؟!

هل يكافئه عمل موظفة استقبال، أو مذيعة في الإذاعة أو التلفزيون أو أي عمل آخر؟!

وإذا كان هذا هو عمل المرأة في البيت.. فماذا عن مناهج التعليم التي تدرسها فتياتنا في المدارس والجامعات.. أتراها تعد المرأة التي تحسن إدارة البيت؟

إن إدارة البيت بحاجة إلى مهارات معاصرة لم تكن المرأة قبل هذا العصر بحاجة إليها. إن استخدام الغسالة والنشافة وجلاية الصحون والثلاجة وغيرها من الأدوات بحاجة إلى خبرة ومهارة حتى لا تتلف وحتى يكون استخدامها سليماً لا يتلف الملابس والأدوات.

وإن تربية الأطفال والرعاية بالأولاد في مختلف مراحلهم بحاجة إلى ثقافة تواكب العصر.

وبعد.. أليس تدبير المنزل عملاً شاقاً.. يحتاج إلى مهارة ويحتاج إلى تقدير؟!

الاقتصاد المنزلي

من مشكلات التكوين الأسري لدينا أن إدارة الاقتصاد المنزلي لا تخضع لقواعد مدروسة، وقوانين معلومة، أو لثقافة مكتسبة تمكن من السير بالأسرة في طريق الأمان، بل هي خاضعة للحاجات التي توقع كثيراً من الأسر في الدين، لأنها لا تفرق بين ما هو ضروري وما يمكن أن يُستغنى عنه.

صحيح أن كثيراً من الأسر في البلاد الإسلامية تقع تحت خط الفقر.

وأعني بذلك أن الدخل الرئيسي لرب الأسرة لا يكاد يكفي لسد الحاجات الأساسية للأسرة.

ولكن صحيح أيضاً أن إتقان فن الاقتصاد المنزلي يمكن أن يجنب الأسرة الوقوع في الأزمات.

يفترض في رب الأسرة أن يقدر دخله.

وأن يعرف الحاجات المتوقعة للأسرة.

وأن يعد ميزانية أولية يوازن فيها بين الدخل والحاجة.

ويفترض في الزوجة التي هي صمام الأمان في الأسرة أن تكون العين الرقيبة على ذلك، فكثير من حاجات الأسرة تمر من تحت يدها.

فالملابس والطعام من المصارف الأساسية للأسرة التي تستهلك جزءاً لا بأس به من الدخل.

وإذا تم الاقتصاد فيها وفرت الأسرة ما يمكنها من تلبية الحاجات الأخرى.

إن الوجبة الرئيسية للأسرة مثل لما يمكن أن يقع فيه الاقتصاد.

فهذه الوجبة إن جلبت من المطعم كلفت أضعاف ما تكلفه في البيت.

وإذا صنعت باللحم الأحمر كانت كلفتها أعلى من استخدام الدجاج مثلاً.

وهناك وجبات اقتصادية ذات قيمة غذائية عالية لا يدخلها اللحم بلونيه يمكن أن تكون بديلاً في أيام متكررة.

إن مشكلات الجيل الجديد من الأسر أن ركني الأسرة لم يتلقيا خبرة الجيل السابق في الاقتصاد المنزلي. حيث كانت الحياة أقل رخاء، ولكن التدبير كان يجعلها مقبولة.

لقد اختفت من الموائد كثير من الوجبات الشعبية الرخيصة الثمن المغذية وذلك للانقطاع بين الأجيال.

إن مما ينبغي أن تتقنه الأسرة المعاصرة استخدام نظام البدائل، وترك ما غلا من الأشياء. ورحم الله إبراهيم بن أدهم الذي قيل له: إن اللحم قد غلا فقال: أرخصوه بالترك.

الفصل السادس

الوالدان والأولاد

* الوظيفة الأصيلة والبديل الرديء.
* الطفولة المظلومة.
* حقوق وواجبات.
* التربية والثمرات.
* صلاح الوالدين وفساد الذرية.
* قرة عين.
* خلل في العلاقات.
* أنت ومالك لأبيك.
* الشكوى من الأبناء.
* معاملة الوالدين.
* عداوة الأولاد.
* هوى الأولاد وصلابة الآباء.

الوظيفة الأصيلة والبديل الرديء

الأمومة وظيفة أصيلة من وظائف المرأة . .

والمرأة التي لا تنجب ولا تعرف طعم الأمومة . . امرأة تحس بالنقص في حياتها.

ولئن كان سعي المرأة التي يتأخر إنجابها إلى المعالجة نابعاً من مشاعر متعددة، ومواقف شتى، فليس أقلها القيام بالوظيفة الأصيلة التي خلقت المرأة لتقوم بها في مرحلة من مراحل حياتها.

ولكن طبيعة الحياة المعاصرة لم تدع كثيراً من الأمور على طبيعتها.

ومن ذلك تعارض وظيفة الأمومة مع ما تقوم به المرأة من وظائف أخرى في الحياة.

إن الضرورة الاقتصادية تدفع بكثير من النساء إلى مواقع العمل المختلفة . .

بل إن بعض الرجال يفضلون المرأة العاملة وذلك لتكون عوناً لهم في مرحلة تأسيس الحياة الزوجية . .

وإذا تيسرت الأمور رجعت المرأة إلى بيتها واكتفت بالرزق الذي يأتي من عمل الزوج.

ومن مشكلات العمل طغيانه على وظيفة الأمومة..

حيث لا تراعي تشريعات العمل في كثير من البلاد طبيعة المرأة وحاجات أطفالها.

والجواب الجاهز لدى أرباب العمل: المرأة التي لا تستطيع القيام بحق عملها عليها تركه والتفرغ لبيتها!

تحمل المرأة العاملة.. فتفرح.

وما لها لا تفرح وهي ستصبح أماً.. وستحقق هدفاً أساسياً من أهداف الزواج.. وتقطع الألسنة التي تطول إن تأخر حملها..

وتمضي الأشهر.. ويثقل بها الحمل، وتحس بعبء العمل ثم تلد! تجاز أسبوعين أو شهراً أو فوق ذلك بقليل باختلاف إجازات الوضع في البلاد المختلفة..

ويأتي اليوم الصعب! يوم العودة إلى العمل.. ويكون الأمر أشق مع طول ساعات الدوام..!

فقد تضطر إلى الغياب عن طفلها ثماني ساعات! أو دون ذلك! فأين تذهب به؟ وكيف يتم إرضاعه؟

المحظوظ من الأطفال من يجد مأوى لدى جدّته لأمه أو لأبيه!

وأكثر الأطفال يوضعون في حضانات! وينقطعون عن الرضاعة الطبيعية كلياً أو جزئياً! وقد يكون البديل خادمة مستوردة!!

هل ينال الأطفال حقوقهم في الرضاع والرعاية في مرحلة الطفولة الأولى؟

ألا يظلمون بعمل الأم.. وهل يعوضهم عنها أي بديل ولو كان جدة أو خالة أو عمة؟!

هل يمكن للتشريعات أن تنصف الأطفال بإجازة طويلة للأم تؤدي حقهم ولا تنقطع عن عملها انقطاعاً نهائياً؟!

الطفولة المظلومة

لكل مرحلة من مراحل العمر خصائصها وحاجاتها التي تحدد طرق التعامل معها.

وكم يظلم الإنسان نفسه حين يتجاهل ذلك.

لأنه يكون كمن يريد الثمرة في غير أوانها، أو كمن يكلف الأشياء ضد طباعها.

أقول هذا وأنا أنظر في حال الطفولة والأطفال في أكثر بلاد المسلمين.

وأستطيع أن أصف الطفولة بغير تردد بأنها مظلومة، حيث لا يحصل الطفل على ما ينبغي أن يحصل عليه من حقوق. إن واقع كثير من الأسر في مجتمعاتنا لا يتيح توفير متطلبات الطفولة في المنزل من ألعاب وكتب ومجلات، فضلاً عن متطلبات الجسم النامي.

والمجتمع لا يسدّ هذا النقص في كثير من الأحيان.

فأين ملاعب الأطفال؟

وهل يفكر مخططو المدن والتجمعات السكانية في حاجات الأطفال؟

وأين مكتبات الأطفال التي ينبغي أن توجد في كل حي ليقضي الطفل فيها بعض يومه يستمتع ويستفيد، وينمو نفسياً وعقلياً واجتماعياً.

وأين حقوق الطفل المتمثلة في إدراك نفسيته وعقليته من الوالدين ومن المعلمين؟!

أليس الطفل لدى كثير منا رجلاً صغيراً أحياناً؟!

ولذلك نعامله معاملة الكبار من حيث الأوامر والنواهي؟

أو ليس إنساناً ناقصاً ـ أحياناً أخرى ـ عقله صغير وقدراته محدودة؟!

أين حقوق الطفل في المدرسة التي تستوي فيها (هندسة الصف) من المرحلة الابتدائية حتى الثانوية بل الجامعية؟! أليس فيها جميعاً مقاعد ولوح ومدرس..؟

أولسنا نفتقد فيها الأساليب التي تجعل الطفل يحب المدرسة كما يحب البيت؟!

أين حقوق الطفل في المجال الثقافي في تأليف الكتب الخاصة به وفق مراحل الطفولة المختلفة؟

وأين مجلات الأطفال التي تعرف حق الطفل وتقدم له ما ينبغي تقديمه من ألوان المعرفة؟

هناك تجارب ومحاولات ولكنها ما تزال دون ما هو مطلوب كماً ونوعاً؟!

إن الحديث عن الطفولة هو حديث عن مستقبل الأمة، فأطفال اليوم هم غراس تؤتي أكلها بعد سنين.

فإن غرست فيها المبادئ والقيم السليمة جنت الأمة منها ما تريد، وإلا فإن حالة التخلف في الأمة قد تمتد إلى زمن بعيد.

حقوق وواجبات

لا شك في أن للأولاد حقوقاً كما عليهم واجبات. . ولكن واجباتهم أعظم من حقوقهم.

وكما أنه يُطلب منهم أن يؤدّوا الواجبات فإن من حقهم نيل حقوقهم!

وقد جسد هذا الأمر مقولة يصورها هذا الموقف:

سبّ أعرابي ولده وذكر له حقّه عليه.

فقال له الولد: يا أبتاه، إن عظيم حقك عليّ لا يبطل صغير حقي عليك.

والفارق كبير بين أداء الأولاد لحقوقهم وأداء الآباء لها!

الوالدان يؤديان حقوق الأولاد بفطرة ومحبة وإقبال. .

وقد يؤدي بعض الأولاد حقوق الوالدين بثقل وأداء للواجب. . !

يروى أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له:

- إن لي أُمّاً بلغ منها الكبر أنها لا تقضي حاجتها إلاّ وظهري لها مطية! فهل أديت حقّها؟ قال: لا! لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تتمنى بقاءك! وأنت تصنعه وتتمنى فراقها!!

والأمر بين الأولاد والوالدين بحاجة إلى قسطاس مستقيم وميزان عدل!

وقد نطق أهل الحكمة بأقوال في هذا الأمر.

ومن ذلك ما روي عن زيد بن علي أنه قال لابنه: «يا بني! إن الله لم يرضك لي فأوصاك بي! ورضيني لك فحذرنيك! واعلم أن خير الآباء للأبناء من لم تدعُه المودّة إلى التفريط، وخير الأبناء للآباء من لم يدعه التقصير إلى العقوق».

إنه الميزان الذي لا تفريط فيه ولا تقصير، ولا إهمال ولا عقوق.

ومما يروى في هذا المجال هذا الموقف الذي كان بين الأحنف بن قيس ومعاوية بن أبي سفيان، حين دخل الأحنف على معاوية فسأله: «ما تقول في الولد؟» فقال: «يا أمير المؤمنين، ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم

أرض ذليلة، وسماء ظليلة. فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودّهم، ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقيلاً فيملّوا حياتك، ويحبّوا وفاتك!»

فقال معاوية: «لله أنت يا أحنف، لقد دخلت علي وإني لمملوء غضباً على يزيد فسللت الغضب من قلبي!»

إنها نظرات حكيم مجرب، وقواعد في تربية الأولاد..

ولكن هل تكون ثمرة إحسان التربية دائماً وفق ما يراد؟

وهل يكون الأبناء قرة عين للوالدين في كل حال؟

التاريخ والواقع يعطيان جواباً قد لا نرضاه.. ولكنها الحقيقة المرة!!

التربية والثمرات

لقد أصبح سعي أكثر الناس في هذا الزمان موجّهاً لتأمين أمر أولاده.. بتوفير الحياة الكريمة لهم، وتعليمهم وتهيئتهم للحياة ليكونوا أناساً ناجحين، وإعدادهم للآخرة ليكونوا من المفلحين.

وكم يحس الأب والأم بالخيبة حين يجدان الأولاد يسيرون في طريق غير الذي يريدون!

إن هناك اختلافاً بين الأجيال.. ولا أحب أن أسميه صراعاً لأن الصراع يكون بين الأعداء لا بين الآباء والأبناء!

وإن هناك ظروفاً متجددة يعيشها الأبناء غير التي عاشها الآباء! ولكن لا بد من أن يكون هناك خط لا يتجاوزه الأبناء.. لكيلا يسببوا لآبائهم الخيبة والمرارة!

إنك لتعجب حين ترى شاباً ناجحاً متفوقاً والظروف من حوله تدعوه إلى الفشل واليأس!

ويزداد عجبك حين ترى شاباً يفشل والعوامل من حوله تدفعه إلى النجاح!

تعجب وأنت ترى الشاب ينشأ في أسرة متدينة . . ولكنه يشذّ عن الطريق!

وترى شاباً ينشأ في أسرة قليلة التدين بل ربما يُحارب الدين فيها . . فتراه نموذجاً للتمسك بالإسلام سلوكاً ودعوة وفكراً . .

وقد تردد قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : ٥٦] .

وقد تتهم الوالدين بالتقصير في شأن أبنائهما . . وقد يكون شيء من ذلك . . ولكن ليس في الأحوال كافة!

إن من أهم المشكلات في حياتنا أن دور الأسرة في التربية قد تراجع . .

ودور المساجد في التوجيه واستقطاب شباب المسلمين ليسّ في المستوى المطلوب . . بل هو يتأرجح وفق ظروف مختلفة . .

ويبقى الأبناء ضحية عوامل أخرى . . المدرسة والمنهاج الدراسي وتوجيه المدرسين، والصحبة في المدرسة والحي والنادي . . ووسائل الإعلام وما تبثه من ثقافة مغرية تتسلل إلى النفس تسلل الأشعة لا تسلل الهواء!!

ومع ذلك كله.. تبقى مسؤولية الآباء والأمهات قائمة.. ويبقى الحرص في الصدر مشتعلاً..

صلاح الدين وفساد الذريّة!

وضع النبي ﷺ لمن يقبل على الزواج أساساً يقيس عليه الزوجة. . فقال. . «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله».

وجاء في حديث آخر: «فاظفر بذات الدين تربت يداك».

هذا التوجيه النبوي لا بد أن يثمر في إقامة أسرة صالحة طيبة ترفرف عليها السعادة ويجد كل من الزوجين لدى الآخر السكن والمودة والرحمة.

والأسرة الطيبة كالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربّه، فتكون الأسرة محضناً يخرج الصالحين والصالحات من أبناء المجتمع!

ولكننا نجد أن بعض الصالحين ـ وأقول (بعض) تواضعاً لأن الظاهرة أكبر من (بعض) ـ يخرج من أبنائهم من ليسوا على شاكلتهم علماً وديناً. .

بل نجدهم كنبتة الشوك في حوض من الزهر!!

ونجد من يبحث عن العلل والمخارج.. فيقول لك: ليس في هذا عجب! فمن أبناء الأنبياء من كان كافراً.. وهذا من الابتلاء و﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩].. إلى آخر تلك التعليلات!

وإذا كان لهذه التعليلات وجه فإن هناك تعليلاً لا بد من التنبه إليه.. وهو وجود تقصير من بعض الصالحين في الالتفات إلى أبنائهم تعليماً وتهذيباً.

ووجود تقصير وضعف في الأمهات الصالحات عن متابعة أبنائهن والقيام بدور التربية المنوط بهن!

فإذا كان الأب مشغولاً بعلمه وعمله ودعوته. فإنه إنما اختار الزوجة الصالحة التي تنوب عنه وتقوم بواجبها في التربية الصالحة.. وإن لم تفعل ذلك فما فضل صلاحها؟

أو لم يقل الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها

أعددت شعباً طيب الأعراق

إن من المظاهر القاتلة في حياة الأسرة أن تضعف الأم عن القيام بواجبها..

وأن تكون ظلاً لشخصية الأب في التربية.. فلا تعالج المشكلات بنفسها.. بل تحملها إلى الأب.. فيصبح موقفها ضعيفاً أمام أبنائها..

لا بد أن يكون الأب على علم بكل ما يجري ولكن لا بد أن يكون للأم دور تنفيذي في معالجة كثير من المشكلات..

وعليها أن تتشاور دائماً مع الأب في كل ما يعين على إخراج ذريّة صالحة!

إن «الصلاح» قد يصبح «وهماً» لدى بعض الآباء والأمهات يحول بينهم وبين إخراج أبناء صالحين كما يحبون..

ولذا نراهم يلقون بتبعة «فساد الأبناء» على المجتمع والصحبة.. وينسون أنفسهم.. وتلك إحدى مشكلات الحياة بعامة، والحياة الأسرية بخاصة.. نسيان التقصير الذاتي والقيام بنقد الذات!

قرة عين!

الأبوة والبنوة أساس الحياة الاجتماعية.

فالأبناء ثمرة الزواج، والزواج هو ثمرة الاستجابة لنداء الفطرة التي فطر الله الناس عليها ليستمر النسل على هذه الأرض إلى ما شاء الله.

والذرية مطلب من مطالب الحياة الزوجية..

ولا يقرّ قرار الزوجين حتى يرزقا بما كتب الله لهما، لأن في الذرية امتداداً مادياً للإنسان كامتداد أغصان الشجرة، وبافتقادها يحس الإنسان بالعقم.

والعقم انقطاع النسل وفناء للذكر والامتداد.

والذرية زينة الحياة الدنيا!

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦].

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤].

والمتوقع أن يكون في الذرية قرة للعين يقر بها القلب وينشرح الصدر:

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

ومن افتقد الولد من ذريته بحث عنه في ولدٍ يتبنّاه كقول امرأة فرعون:

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

ولكن.. هل يكون الأبناء كذلك دائماً؟!

وهل ظهور السوء في الأولاد ثمرة تقصير الأسرة؟!

قبل أن ندخل في التفصيل لا بد من الإشارة إلى نماذج ذكرها القرآن الكريم في هذا الشأن!

المثل البارز ابن نوح عليه السلام! فنوح نبي رسول من أولي العزم! ولكن ابنه لم يكن على طريق الهداية!

وما أظن القرآن الكريم ذكره ـ والله أعلم ـ إلا ليقول: قد يكون من ظهر الصالح شقي!

وما يظن عاقل أن نوحاً عليه السلام قصّر في رعاية ابنه وتوجيهه ودعوته إلى الخير!

وكذلك ما ورد في سورة الكهف في قصة موسى والرجل الصالح.. الذي قتل الغلام ولمّا كشف سرّ الفعل

لموسى قال: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

فما كان لدى هذا الطفل من شقاء لم يكن ثمرة تقصير من الوالدين!

إن نعم الله على الإنسان كثيرة.. ومن أجلّها كما قال الشاعر:

نعـــم الإلـــه علـــى العبـــاد كثيـــرة

وأجلهـــــنّ نجـــــابـــــة الأولاد

فمن تحققت له هذه النعمة واستقام أولاده وسعدوا في دينهم ودنياهم.. فما أسعده! وإلاّ فذلك بعض الابتلاء!

خلل في العلاقات

لقد تغيرت قواعد اللعبة في كثير من الأسر في عصرنا الحديث.

فقد حلت قيم وآداب جديدة..

تخلخلت الأسرة.. وتراخت الروابط الاجتماعية بين أفرادها..

ويمكن أن ننظر إلى زاوية من هذا التغير في العلاقة بين الوالدين والأبناء!

كانت للأب حتى وقت قريب سلطة مطلقة في البيت..

وكانت له صولة وهيبة..

إذا دخل سكنت الحركات..

وخشعت الأصوات.

يحدثه الأبناء في أدب وتواضع.

يحسبون الحساب قبل أن تخرج الكلمة وقبل أن ترتفع الضحكة.

إذا جلسوا.. كانت جلسة فيها أدب ومراعاة لمن حولهم.

وإذا دخلوا أو خرجوا قدموا الوالد والأكبر فالأصغر . .

يجتمعون حول الأب والأم اجتماع زُغب العصافير حول العش . . !

لا يقطعون برأي قبل أن يستشار الأب وتستأذن الأم .

ويعدون ذلك سبيلاً من سبل البر ، وحقاً من حقوق الأب ووسيلة لإرضاء الأم!

فماذا عن الحال في كثير من الأسر في هذه الأيام . . ؟

لقد ازدادت سلطة الأبناء . . وتراجعت سطوة الآباء!

وإن كثيراً من الآباء اليوم يسعون إلى مرضاة أبنائهم . . مع تَسخُّط الأبناء أو تمردهم على السلطة الأبوية . .

ولهم سلسلة من المطالب لا تنتهي!

وتراجعت الآداب التي كان يلتزمها بعض أبناء الأجيال السابقة في الحديث والجلوس والاستئذان وغير ذلك من شؤون الحياة!

ويبدو أن ذلك ناتج عن دخول عوامل جديدة في التأثير على الأبناء . .

فلم يعد الأب هو النموذج الأعلى ، أو القدوة والمثل المؤثر في السلوك .

ولم تعد الأسرة هي مصدر التلقي للأفكار والمبادئ والقيم. .

هذا فضلاً عن طبيعة العصر الذي يدفع إلى التشتت لا إلى الاجتماع. .

إن إيقاع الحياة السريع، ووسائل الإعلام الحديثة، والاطلاع على أنماط السلوك في الأمم الأخرى أدت إلى كثير من التغير في العلاقات الأسرية. . تغير في بعض جوانبه إيجابيات، ولكنه لا يخلو من سلبيات كثيرة.

أنت ومالك لأبيك

جمعتني به جلسة دار فيها موضوع الأولاد في هذا الزمان. . وكيف كان الأب قبل عقود من الزمن يُعلّم أولاده وهو يرجو أن يكونوا عوناً له في الحياة. . ثم تغيرت الأحوال فصار الأب لا يستطيع أن ينقطع عن مساعدة ابنه حتى بعد تخرجه وحصوله على الشهادة الجامعية وعمله!

فالأحوال الاقتصادية في كثير من البلاد العربية والإسلامية لا تعين على الاستقلال الاقتصادي للشباب إلا بعد سنين طويلة!

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان هيناً!

ذلك أن الوالدين ينذران نفسيهما لأولادهما ويقدمان العطاء بلا حدود، وفي أكثر الأحيان بلا انتظار لجزاء أو شكور! إلا من كلمة طيبة، أو اعتراف بالجميل، أو طاعة في المعروف!

حدثني ذلك الصديق عن بعض حاله!

فهو يعمل في إحدى دول الخليج منفرداً عن أسرته التي تقيم في بلد عربي آخر. . .

وهو يعمل في أكثر من مجال ليوفر لهم الحياة الكريمة. .

وها هو ابنه صيدلي. . وبنته طبيبة. . وابنه الآخر طالب في الجامعة وأبناء آخرون على الطريق!

أعان ابنته في تجهيز عيادتها الخاصة. .

وأعان ابنه في شراء صيدلية ونظر إلى مستقبله. .

فابنته في طريقها إلى الزواج. . فماذا عن نصيبه في العيادة؟

وابنه مقبل على الزواج. . فماذا عن نصيبه في الصيدلية.

لم يجد حرجاً في أن يكتب بينه وبين ابنته عقداً يثبت به حقه في عيادتها. وعرض على ابنه أن يجعله شريكاً في الصيدلية فرفض الابن ذلك ووجد نفسه مضطراً إلى أن يكتب عقداً آخر بينه وبين ابنه. .

وقال له: يا بني. . أنت اليوم أعزب. . وغداً ستتزوج. . وإذا ما عدت إلى بلدي ولم أجد مورداً فإنني إن طلبت منك مبلغاً من المال. . أعطيتني أول مرة. . ثم إذا طلبت ثانية نظرت إلي نظرة لا أحبها. . وإذا طلبت منك

الثالثة ستردني.. ولذلك لا بد أن أحفظ حقي في مالي وأعينك على بناء حياتك!

استمعت إليه وأنا أقول لقد انقلب القانون النبوي فليس الولد وماله لأبيه.. بل الأب وماله لأولاده!!

الشكوى من الأبناء

شكوى الوالدين من الأبناء قضية قديمة متجددة..

فقد ذكر لي رجل فاضل أنه جمعه مجلس برجال علم من بلاد مختلفة، وأكثرهم أساتذة في جامعات، وذوو سمعة طيبة، فكانت الشكوى من الأبناء قاسماً مشتركاً بينهم!

وتنوعت الشكاوى من فشل في الدنيا أو انحراف عن الدين.

الغريب في أمر الأبناء أنهم يعلمون ويتجاهلون!

يعلمون عقوبة العقوق وأثره في حياة الإنسان وآخرته.. ولكنهم يتجاهلون ذلك، ويتصرفون بأعصاب باردة!

تجد الشاب في خارج البيت على سجيته.. ابتساماً وتفاعلاً وحسن تعامل!

حتى إذا دخل البيت انقلب إنساناً آخر! مقطب الوجه.. شاكياً إن تكلم.. غير راضٍ عن شيء!

لقد جاء في القرآن الكريم وصايا بالوالدين ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، في مواضع منه..

وجاءت الأحاديث الشريفة تبين أن بر الوالدين واحد من أحب الأعمال إلى الله عز وجل.

وأن الولد لا يجزي والده على ما قدم له مهما يعمل! والعقوق من أكبر الكبائر..

ومع هذا كله يكون عقوق الأولاد! أو تمردهم.. أو شرودهم عن طاعة الوالدين!

وليس ذلك عجباً.. فالشيطان وهوى النفس.. يرديان!

لقد شكا بعض الآباء من أبنائهم قبل الإسلام! ومن أشهر ذلك ما يروى عن أمية بن أبي الصلت في ولده:

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً
تُعلُّ بما أجني عليك وتُنهل
إذا ليلة نالتك بالشكو لم أبت
لشكواك إلا ساهراً أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي
طُرقتَ به دوني وعينك تهمل
فلما بلغت الوقت في العدّة التي
إليها جرى ما أبتغيه وآمل

جعلت جزائي منك جَبْهاً وغلظة
كـأنـك أنـت المنعـم المتفضـل
فليتـك إذ لـم تـرع حـقّ أبـوتـي
كمـا يفعـل الجـار المجـاور تفعـل

إنها شكوى مكرّرة.. تنطق بمكنون ما في نفوس كثير من الآباء!

ويبدو أن الإحساس بالخيبة يكون على قدر الأمل المبني على الأبناء! ولذا نرى من بعض الآباء نظرة واقعية تخفف من مصائبهم إن كان من الأبناء عقوق أو شرود عن الطاعة.

يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ناول رجلاً شيئاً فقال له الرجل: خدمك بنوك!

فقال عمر: بل أغنانا الله عنهم!!

ويروى أنه رأى رجلاً يحمل طفلاً على عنقه، فقال: ما هذا منك؟ قال: ابني! قال عمر: أما إنه إن عاش فتنك وإن مات حزنك!

وصدق من قال: ابنك ريحانك سبعاً وخادمك سبعاً ثم عدو أو صديق!!

معاملة الوالدين

بعض الأبناء نموذج للمطلوب نجاحاً في الحياة، واستقامة على طريق الله، وبرّاً بالوالدين وبعضهم دون ذلك على درجات يتفاوتون!

ولذلك ليس عجيباً أن نجد في القرآن الكريم الوصايا بالوالدين للأبناء لأن الوالدين ماض.

والإنسان لا يلتفت إلى الماضي إلا لحاجة.

والأبناء مستقبل ومن الطبيعي أن ينظر الإنسان إلى المستقبل الذي يكون أمامه!

ومن هنا كان حرص الوالدين على الأولاد حرصاً غريزياً لا يحتاج إلى تنبيه.

وكان البرّ بالوالدين أمراً دينيّاً واجتماعيّاً يحتاج إلى التذكير!

وإن مما يثير العجب أن تجد الولد منشرح الصدر منطلقاً خارج بيته..

فإذا دخل عتبة الباب.. تجهم وقطّب حاجبه وكأنه يدخل سجناً! ويضيق صدره ويسوء خلقه.. ويزداد تأفّفه!! «يبر صديقه ويجفو والده».

وتسأل لماذا؟ وأنت ترى الوالدين يحرمان نفسيهما من كثير مما يريدان من متع الدنيا ويؤثران به أولادهما! ومع ذلك لا يجدان جزاء ولا شكوراً. . ولا كلمة طيبة أو وداً في المعاملة!

أذلك ثمرة سوء في الطبع؟ أم تقصير في التثقيف والتوجيه؟!

أيحتاج الإنسان إلى من يعلّمه كيف يعامل أبويه؟

إن صديقاً له يقدم له هديّة رمزيّة. . أو يدعوه إلى طعام فيحفظ هذا الموقف للصديق. . ويتحدث عنه ويسعى إلى مكافأته!

فكيف به وهو ضيافة والديه سنين طويلة؟

كيف. . وهما ينفقان عليه ويعتنيان به. . ويرعيانه في كل شأنه. .؟ ألا يستحق هذان الوالدان مكافأة على ما قدّما؟

لا أقول مكافأة ماديّة! وإن كان الحكم النبوي «أنت ومالك لأبيك»!

ولكن أقول المكافأة المعنويّة بحسن المعاملة، ولين القول وخفض الجناح!

لقد نبّه الله عز وجل عباده إلى بعض ما يعرض لهم في الحياة من تنغيص فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤]، ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨].

عداوة الأولاد

ماذا يريد عدوك أكثر من تنغيص عيشك، وإثارة القلق في نفسك، ونشر النكد في ليلك ونهارك؟

ماذا يريد عدوك أشد من إيذائك في بدنك ونشر العلل فيه؟

ليس أكثر من ذلك إلا أن تمتد يده إليك بالقتل!

فماذا إذا كان سبب النكد والمرض ولداً؟

ألم يقل الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤].

الأصل في الأولاد أن يكونوا من زينة الحياة الدنيا.. وإنما يتمناهم المرء ليكونوا قرة عين في الحياة، وامتداداً للأجر من بعد الوفاة..

ولكن الأماني لا تتحقق! فإن أقر بعضهم العين، كان بعضهم الآخر قذى في العين، وشوكة في الحلق، وغصة في الصدر..!!

أليس من عداوته أن تريد له السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة فترى منه الإصرار على الغواية.. وسيراً على منهج ذلك الغوي الذي حدثنا عنه القرآن الكريم: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

وليس من العجيب أن نجد من الولد عداوة ونجد من الوالدين عفواً وصفحاً.

وأن نجد منهما إصراراً على عودة الولد إلى جادة الصواب.. فالفطرة والدين يدعوان إلى ذلك.. ولكن مع ذلك ينبغي الحذر استجابة لأمر الله.

ومن الحذر عندما تستبين العداوة البراءة من عدو الله وعدو الوالدين..

أو لم يتبرأ أبو الأنبياء إبراهيم من أبيه ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

ومن الحذر عدم الاستسلام لضلال الولد.. كأن يكون تاركاً للصلاة أو محادّاً لله ورسوله.. ويظل يُمَدُّ بالمال الذي يزداد به غياً.

الحياة ابتلاء.. ومن ألوان الابتلاء أن يصاب المرء في آماله التي كان يعلقها على ولده..!

هوى الأولاد وصلابة الآباء

ليس أيسر من الحديث.. فكثير من الناس يحسنون التنظير.. ولكن كم منا من يستطيع أن يحول أفكاره ونظرياته إلى واقع في حياته وحياة أسرته؟!

إن الخيبة تكون كبيرة حين يكتشف الإنسان أن ما زرعه في أولاده من القيم وما أرادهم عليه من المبادئ قد ضاعت أو لم تتحقق بالمستوى المرجو. أو حين يجد لأولاده موازين مختلفة عن موازينه. وأشق ما يكون ذلك في موازين الزواج.. حين يريد الابن أن يختار زوجة لا تناسب أسرته في أكثر من جانب!

وقع شاب في هوى زميلة له في الجامعة، وامتدت بينهما العلاقة سنوات، حتى إذا تخرج وبدأ الحياة العملية.. أسرَّ إلى أمه بالأمر، وطلب منها أن تسعى إلى إقناع والده بخطبتها! والوالدة أحياناً أقرب إلى العاطفة وأسرع في هوى الأبناء حرصاً عليهم، ورغبة في تحقيق سعادتهم.

وصعق الوالد عندما عرف بالأمر!

ذلك لأنه رفض مبدأ هذه العلاقة من جانب، ورفض المصاهرة من أسرة لا يرى بين أسرته وبينها تكافؤاً.

وأخذ الابن في الضغط على والديه من خلال مواقف انفعالية حاول بها التأثير عليهما. .

وسيطر على الأسرة جو من القلق المؤذي نفسيّاً وصحيّاً. . وامتد الأمر مدة. . وكأنّما كان كل طرف يعتمد على الزمن عاملاً لإضعاف موقف الطرف الآخر. .

ولم يكن باستطاعة الابن أن يتصرف وحده. . فقد اشترط أهل الفتاة حضور والديه للبحث في الأمر. . وأصرّ الوالدان على الرفض. .

ومرّت فترة عصيبة تدخل فيها الأقارب، وكانت فرصة للابن للتفكير العميق في أمره.

فهل يستطيع أن يفرض الزواج على أسرته؟ وهل يستطيع أن يعيش في جو غير سوي بين أسرتين غير متوافقتين؟

إن إصراره على الزواج من تلك الفتاة يعني الانفصال عن أسرته. .

وشيئاً فشيئاً أخذ كابوس الهوى بالانحسار.

وأخذت الغشاوة بالزوال عن بصره.

لقد كان لصلابة الوالدين أثر في رد الابن إلى جادة الصواب فلو أخذتهما العاطفة، ووقعا تحت تأثير الحالة النفسية التي كان يصطنعها الابن لندما.. ولندم الابن الذي سيكتشف بعد الزواج أن هذه الفتاة التي تعلق بها ليست هي الزوجة المطلوبة..

القسوة مطلوبة أحياناً.. وهي كقسوة الجراح الذي يستأصل الألم بالمبضع!!

الفهرس

وأخذت الغشاوة بالزوال عن بصره.

لقد كان لصلابة الوالدين أثر في رد الابن إلى جادة الصواب فلو أخذتهما العاطفة، ووقعا تحت تأثير الحالة النفسية التي كان يصطنعها الابن لندما.. ولندم الابن الذي سيكتشف بعد الزواج أن هذه الفتاة التي تعلق بها ليست هي الزوجة المطلوبة..

القسوة مطلوبة أحياناً.. وهي كقسوة الجراح الذي يستأصل الألم بالمبضع!!

الفهرس

العلاقات الأسرية

رؤية اسلامية

لا يخفى أن العلاقات الأسرية هي علاقات بين البشر يخطئون ويصيبون، ويحسنون ويسيئون، ولذا لا بد أن ينظر الإنسان إلى الأسرة وعلاقاتها نظرة تدبر وتفكر، بناءً وامتداداً، وعوامل نجاح، وعوامل خلل، وما قد تؤول إليه بعض الأسر من نهاية غير سعيدة.

لقد ضمنت هذا الكتاب نظرات وآراء هي ثمرة التفكير والتدبر، والخبرة والمشاهدة والسماع، وأملي أن يجد القارىء فيها فائدة تحفزه إلى موقف إيجابي، وتبصره بمواضع الخلل، وتزوده بنظرة الحذر من المزالق التي قد تنشىء أسرة غير سوية، أو تدفعه إلى سلوك غير قويم،أوتؤدي بالأسرة إلى عاقبة لا تحمد. وأشير إلى أنني لم أستخدم الأسلوب البحثي الموثق في التأليف، ولا الفصول المطولة التي قد تثقل على القارىء العادي، وهو وجهتي في الكتابة، ذلك لأن مقصدي هو أداء رسالة إيجابية في حياة الأ[illegible] تجد من يتلقاها ويحسن التعامل معها.

